

باب الثاني

أغراضه الشعرية

تقديم

قال الزمخشري الشعرى فى أغراضه التقليدية، من المدح والرثاء والحنين والشكوى والهجاء والفخر والزهد والحكمة والوصف والغزل، إلى غير ذلك من الأغراض التى توارثها الشعراء السابقون عليه .

وإذا كانت المقطعات من شعره تأتى - عادة - فى غرض واحد ، فإن معظم قصائده تعدد الأغراض فيها لاسيما قصائد المدح ، فقد نجد فى القصيدة الواحدة نسيبا ووصفا وشكوى وفخرا وحكما ومدحا، مما يصعب معه تصنيف هذه القصائد ووضعها تحت غرض دون غيره .

ومع هذا فىمكن التعرف على الغرض الأساسى للقصيدة من روحها العام، والمعانى التى تشيع فيها، والغاية التى ترمى إليها ، فالقصيدة التى وجهت إلى ممدوح بقصد المدح أو التهنية تندرج فى غرض المدح، وإن كان فيها العديد من الأبيات التى يمكن أن تندرج فى أغراض أخرى، تعد حينئذ أغراضا ثانوية .

وعلى هذا الأساس فقد اجتهدت فى تقديم إحصائية لأهم أغراضه الشعرية ، مبينا عدد القصائد والمقطعات التى يمكن أن تندرج تحت كل غرض .

كما حاولت أن أقدم إحصائية بعدد الأبيات التى قيلت فى كل غرض ، مع ملاحظة التداخل بين الأغراض فى بعض الأبيات ، مثل مانجد فى الوصف الذى يتخلل المدح، كأن يصف قلم الممدوح مما يجعل هذه الأبيات أبيات مدح ووصف فى وقت واحد .

وقد اشتمل الديوان على ٣١٢ قصيدة، فيها مايربو على خمسة آلاف بيت، توزعتها الأغراض المتنوعة ،على النحو الذى تبينه هذه الإحصائية :

الغرض	عدد مايندرج تحته من قصائد أو مقطعات	عدد مايندرج تحته من أبيات
المدح	١٥٦	٢٣٤٢
الرثاء	٣٣	٥٨٤
الحنين	١٩	١٦٢
الشكوى والهجاء	١٢	١٩١
الفخر	١١	٣٢٢
الحكمة	٧	٢٠٠
الغزل	٦	٧٠٣
الوصف	٤	٢٨١
الزهد	٣	١٠٠

وله إلى جانب ذلك قصائد قيلت في أغراض أخرى، مثل القصائد التي تمس حياته أو علاقته بأصدقائه، ولكنها لا تمثل أغراضا جديدة لقلتها .
وسأحاول إلقاء الضوء على شعره في هذه الأغراض التي دار شعره في فلكها. (!)

- ١- ترتيب الأغراض في هذا الجدول اعتمد عدد القصائد والمقطعات في كل غرض، وجلي أننا لو اعتمدنا عدد الأبيات فسوف يتغير الترتيب ليصبح هكذا:
- ١- المدح ٢- الغزل ٣- الرثاء
٤- الفجر ٥- الوصف ٦- الحكمة
٧- الشكوى والهجاء ٨- الحنين ٩- الزهد.

الفصل الأول

المدح

ظفر هذا الغرض بالنصيب الأكبر من شعر الزمخشري ، شأنه فى ذلك شأن شعراء عصره، الذين أولوا هذا الغرض اهتماما خاصا، مما جعله يأتى على معظم شعرهم .

ويمكن أن نميز فى مدائح الزمخشري بين هذه الأنواع :

المدح النبوى - مدح العرب - مدح الأساتذة والأصدقاء - مدح كبار الدولة .
فلنجلّ مع كل نوع منها جولة، فى محاولة للتعرف على خصائصه .

المدح النبوى :

وللزمخشري عدة قصائد فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم^(١) ، أطلق عليها «النبويات» وجعلها فى المنزلة الأولى بين قصائده، فجاءت فى ترتيب ديوانه متصدرة ما قبل فى بحرهما من القصائد .

ولعل الشاعر اتجه إلى هذا النوع من المدح فى فترة زهده وتنسكه بعد أن انصرف عن الدنيا ، وصدف عن مدح رجال الدولة ، واتجه إلى الله بكل أعماله وأحاسيسه ، فكان هذا المدح النبوى تعبيرا صادقا عما أحس به فى هذا الطور من حياته .

وفى بعض هذه القصائد ما يؤكد أنها من نتاج هذه الفترة ، من ذلك توسله بكتابه «الكشاف» والحديث عن كبر سنه وشيب رأسه .

وفى هذه المدائح تطالعنا عاطفة جياشة تفيض حبا للرسول صلى الله عليه وسلم وإجلالا لقدره ، وإكبارا لجهاده ، وتعظيما لصحابته ، وتقديسا للدين الذى بعث هاديا إليه .

١- الديوان: القصائد رقم ١ ، ٢ ، ٩٩ ، ١٥٩ .

وفى هذه القصائد تشابهه فى البناء فهى - بصفة عامة - تبدأ بالنسيب، ثم تنتقل منه إلى شعر دينى فيه تزهيد فى الدنيا وحث على التقوى وصالح العمل واتباع ما جاءت به الرسل ، ثم تنتهى إلى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، وفى معظم قصائده يتحدث عن فضله على جميع الرسل والخلق، وطهارة نسبه، وكرم نفسه ، وحميد خلقه ، وجهاده فى سبيل الدعوة ، ومعاداة الكفار له وماكان له من نصر عليهم بتأييد الله ، كما يتحدث عن صحابته الذين التفوا حوله مجاهدين فى سبيل إعلاء كلمة الله ، فإذا انتهى من ذلك ختم قصيدته بأبيات يتشفع فيها بالرسول متوسلاً بصدق إيمانه ، وسلامة عقيدته ، وصفاء سيرته، وحسن طاعته ، ومؤلفاته التى ابتغى بها وجه الله ، وخدمة دينه .

ومن ذلك مقاله فى نبويته^(١) التى عارض بها مدحة كعب بن زهير :

بانئت سعاد فقلبى اليوم متبولٌ متيم إثرها لم يفد مكبول
وقد استهلها الزمخشري بأبيات فى النسيب فقال :

أضاء لى باللوى والقلبُ متبولٌ نجدى برق بنار الحب مؤصولٌ
كأن ومضته من ناره قبسٌ فالخذ منه بماء الشوق مهطولٌ

ثم ينتقل منه إلى الشعر الدينى موجهها ومرشداً إلى خير الإنسان، فيقول :

وشر ما أوضع الانسان فيه هوى على خلاف الهدى قافيه مدلولٌ
والفعلُ أرضاه عند الله أعرفهُ وماتناكره الألباب مرذولٌ

ثم يخلص من ذلك كله إلى مدح الرسول، فيقول :

والحق فالحقُ ماجاء الرسولُ به سيف على هام أهل الشرك مسلولٌ
والفضل فضل نبيٍّ من بنى مضرٍ إليه أفضلُ خلق الله مفضولٌ
محمد إن تصفُ أدنى خصائصه نيا لها قصةً فى شرحها طولٌ

١- الديوان: القصيدة رقم (٩٩) .

أبو العباد وعبدُ الله بينهما
تالله ملاقه صلَّبٌ ولارجمُ
ثم يقول عن الصحابة:

حفته أشياعُ صدق كالليوث بهم
إذا جرى ذكركم رف القلوب له

ثم يختم القصيدة بأبيات الشفاعة والرجاء والتوسل ومنها:

ياخاتم الرسل إن الطول منك على
فهل يصيبُ فتى لاحبلُ نمته
ولا اشتكت دخلاً منه مناصحة
ما مست الكأس يمناه ، ولا صدمت

له مصاصٌ من الأنساب منحولُ
إلا على الطهر والإنجاب مجبولُ
دمُ الذين استضاموا الدين مطلول
كما يرف الخزامى وهو مطلول

مدح العرب :

تجلى فيما سبق ماكان من حب الزمخشري للعرب وتعظيمه للغتهم مما جعله ينتصر لهم ويدفع عنهم أباطيل الشعوبيين ، ولم يكن افتتانه بالصفات العربية الأصيلة السبب الوحيد فى هذا الحب لهم والانحياز نحوهم ، بل كان هناك سببان آخران من الأهمية بمكان ، أولهما : أن الله سبحانه وتعالى قد اختار أجل رسله منهم ، وثانيهما أن الله قد أنزل أجل كتاب بلسانهم ، فهم خير أمة ولسانهم خير لسان .

وله قصيدة طويلة سماها «العربية»^(١) أشاد فيها بصفات العرب وأخلاقهم ونوه بأفضليتهم على غيرهم من الأمم ، ورد على الشعوبيين أضاليلهم ، ونعى عليهم ضعف مذهبهم ، وحماقة من يدين به .

وفى هذه القصيدة يقول مشيدا بصفات العرب :

١- الديوان: القصيدة (٣) .

من العرب الصيد الألى أحرزوا العلا
 غطارفة شم تريبوا أعزة
 وللعرب العرباء أصلب نبعة
 فيا أمة لو يشعر الصخر بالذى
 إباء إباء الخيل وهى شوامس
 ويذكر هزيمتهم للفرس فيقول :

وهم فرسوا أبناء فارس كلهم
 ومصلتة مازال يطلّى بياضها
 وهم سلبوا التيجان هام ملوكهم
 وعن شرف العرب وترفعهم على الفرس يذكر ماكان بين النعمان وكسرى
 فيقول :

وعن صهر كسرى صد نعمان بأوه
 وهان عليه يومه قبل ساعة
 فخنقه فى خانقين الفوارس
 يكابد فيما صهر من لايجانس

ثم يستشهد على فضل العرب فيقول :

وقل هل فشا فى الأرض غير لسانهم
 به عج فى أمصارها كل منبر
 على ظهرها لم يخلق الله أمة
 يقايس بين الناس حتى إذا انتهى
 وواحدة تكفيك هاتيك حجة
 أجل رسول منهم وبلسنهم
 ثم يختم القصيدة بقوله للشعوبيين :

وقل للشعوبيين : إن حديثكمُ
أضاليلُ من شيطانكم ووساوسُ
لكم مذهبٌ فل يعز بمثله
أشائبُ حمقى لا الرجال الأكايِسُ

ولم يقتصر مدحه للعرب على قصيدته « العربية » ، بل إنه قد يأتي في ثنايا القصائد ، فحين يضيق بالحياة مع لئام الناس يتطلع إلى الحياة في مكة ؛ ليعيش بين العرب كرام الأصل والخلق ؛ وذلك في قوله :

ألا قولى لمكة ترتجعنى
فإن فعلتُ فدام الإرتجاعُ
أياطيرَ الأباطح بشرينى
أيُقضى لى مع العرب اجتماعُ
مع الزهر الكرام بنى لوى
هم للارض مجدهم طلاعُ
صلابُ النبعِ ما نصبوا لكر
حبائلهم ولا فيهم خداعُ
مقاولهم وإن فصحوا مقالا
مناصلهم اذا حضر الوقاعُ (١)

ثم يستمر في الإشادة بهم .

مدح أساتذته وأصدقائه :

كان الزمخشري عظيم الإكبار لأساتذته ، شديد الوفاء لهم ، يفخر بتلمذته لهم ، ويعدّد مناقبهم .

وكان أستاذه فريد العصر أبو مضر أحب أساتذته إليه ، لأنه كان أعظمهم أثرا في حياته ، كما سبق توضيح ذلك .

وقد عكس شعر الزمخشري ماكان يكنه لهذا الأستاذ من حب وتقدير في حياته ، وماظل يحفظه له من وفاء وعرفان بعد وفاته ، وكانت له فيه مدائح ومراث تعد من جيد شعره ، حيث تصدق العاطفة وتتأجج المشاعر ، ومن ذلك قوله في قصيدة طويلة يمدحه بها ، ويشتاق إلى لقائه :

ولهفى على عصر تقضى مناسب
سجايا فريد الدهر أو وجهه الطلقا
هو المرتضى وجها وخلقا ، وإننى
لأشتاقُ ناك الوجه بل ذلك الخلقا

إذا الريح من شرقى مرو تنفست
وما يطببيني الأيك إلا لأننى
وإن عصفت ریح الشمال ذكرته
ويبعث أشجاني الفضاء ؛ لأنه
وتمرى مآقى الغوادی ؛ لأنها
وإن مدجیحون تذكرت فيضه
وليس بسيط البحر إن قسته به
تصاممت أن قالوا كسيف لسانه
هبوا أن حد السيف غرب لسانه
وأكمل دون العالم الله رزقه
محيط بأطراف الأفانين مدع
تردد فيه ثم فى الخلق ناظرى

فيا برد صدرى حين أنشقها نشقا
أساعد فى الشجو الحمام به الورقا
وإسراعه نحو المكارم والسبقا
حكى صدره رجا وهمة سحقا
تضاهى يديه كلما دفقت دفقا
بما يغمر الأذهان والألسن الذلعا
بسيطا ، ولا فى جنبه عمقه عمقا
فلست بمن يصغى إلى خطل الحمقى
فهل لصليل السيف أن يشبه النطقا
من العلم إن العلم أحسبه رزقا
ببيئة فيها التمهر والحدقا
فأكبره ، ثم انثنى يصغر الخلقا (١)

ومن أصدقائه الذين أكثر من مدحهم ابن وهاس أبو الحسن على بن عيسى بن حمزة شريف مكة ، وقد عرفنا فيما سبق شيئا عن حفاوة هذا الشريف بالزَمْخْشَرى حين ذهب إلى مكة وأقام فيها مجاورا البيت الحرام . (٢)

وكان الزَمْخْشَرى ، شديد العرفان لفضل صديقه ، عظيم الإكبار لشيمه وأخلاقه ، وسجل شعره هذه الأحاسيس الصادقة الجياشة فى مدائح كثيرة كانت أثرية لديه ، فجعلها فى مقدمة مدائحه حين رتب ديوانه سماها «الوهاسيات» (٣) نسبة إلى الممدوح بها ابن وهاس .

١- الديوان ١٠٢ .

٢- انظر ص ٥٨ ، ٦٠ من هذه الدراسة .

٣- انظر الديوان القصائد رقم ٤ ، ٥ ، ١٣٦ ، ١٧٠ .

ومما جاء فى إحداهما :

هو الحرُّ ما أُصدى إلى بيض معشرى فأبصره إلا نقتت به الصدى
ولى منه نصحُ الجيبِ والعقدَةُ التى أبت أن يرى الراون أوثق معقدا(١)

وابن وهاس كان أديبا شاعرا ، وله شعر فى مدح الزمخشري ، والزمخشري يذكر ذلك ، ويثنى على شعره فيقول :

وإن ابن وهاس ونعمته التى يطوقُنِيها بالإشادة أخلقُ
وقلدى أطواقَ شعر كأنها سُموطُ بأيدي الكسرويات تُنشقُ
لها رونقان اثنان : رونق طبعه ومن شرف العرق المنافى رونقُ
زلالٌ وصخر رقةً ومتانةً وأحسنُ ما قيل المتينُ المرَّقُّ
كأن جريرا صب فيها نسيبه ورصفُ فيها الافتخارَ الفرزدق(٢)

وهو يجل فى ابن وهاس نسبه الذى يصله بأل النبى صلى الله عليه وسلم؛ ويشيد بأخلاقه الحسنية ، وصفاته العربية فيقول :

ولا كابن وهاسٍ فتى ضمُّ برده حساما وضرغاما وأخضر مزبدا
فتى هو حالٍ بالمعالى بأسرها وقد حليتُ منه المعالى بأوحدا
علا حسنياتٌ سنياتٌ ابتنتُ له بيتَ مجد فى السماءِ مُشيدا
نجيبٌ نمته من ذؤابة هاشم نقياتُ أعراق أطابته مولدا
ولو شاء لم يعتدَّ محتد هاشم نصابا كفاه بالنبوة محتدا
ومن يك ابنا للرسول وصنوه وزهرائه لم يألُ فخرا وسؤدا
إذا قال قولاً فالغفارى لهجةً ولكنه يوم الندى طلحةٌ يدا(٣)

١- الديوان ٢١ .

٢- الديوان ١٦ .

٣- الديوان ٢٠ .

وحقيقة لقد كان الود الصادق الذى ربط بين الصديقين نبعا ثرا فاض بكثير من مدائح الزمخشري، التى تصارعت فيها ألوان من عواطف الحب والشوق والحنين ، حبه لابن وهاس وقومه، وتعلقه بالديار المقدسة، وحبه وحنينه لوطنه وأهله وأصدقائه فى العراق وخراسان وخوارزم .

وكانت هذه المدائح مزيجا من الشكر لأيدى ابن وهاس، والإعجاب بالشيم العربية فيه، والهيام بالأرض المقدسة ، والشوق إلى ديار الشاعر ووطنه والحنين إلى أهله وأحبابه .

مدح كبار الدولة :

وقد أكثر منه شاعرنا فى الطور الأول من حياته كما سبق ، فقد اتخذ شعر المدح وسيلة للتعرف بهم ، والتقرب إليهم ، وعرض مواهبه وفضائله أمامهم ، رجاء الظفر بالمنصب والمال .

وهذا النوع من مدائحه يدخل كثير منه فى «مدح التكسب» زلت بقلم الشاعر إليه ظروفه القاسية من فقر وعجز عن الكسب ، ودفعه إليه طموح شديد طبعت عليه نفسه ، وجعله يجد منذ صغره فى إعدادها بالعلم والأدب لمنزلة كبيرة يتبوؤها بين بنى عصره ، ثم يوثق صلاته بكبار العصر فى شبابه لينتزع منهم هذه المكانة التى ضنوا بها عليه؛ لأنهم لم يكونوا أهل علم وأدب فيقربوا ذويهما ويتشيعوا لأهلها .

وكان طبيعيا أن تاتى مدائحه هنا وقد امتزجت بالفخر والشكوى ، فنجده يعدد فضائله، ويشيد بعلمه وأدبه ، ويتيه بقصيدته ، كما يشكو سوء حظه وانتقاص حقه ، فى أسلوب لا يخلو من السخرية بالعصر ، والتنديد بما حفل به من مفارقات عجيبة، حتى تصدر الأرائل وتأخر الفضلاء ، وعلت المناسم وانحطت الأسنمات .

وقصيدته إلى صدر الكفاة^(١) فيها كثير من هذه الخواطر والأحاسيس، وقد

١- الديوان القصيدة ٢٥ .

ذكرت أبياتا منها قبل ذلك .(١)

وقريب منها قصيدته فى مدح شمس الملوك ، وقد استهلها بقوله :

متى تبلغنى يا فضلُ أمالى ؟ متى توشح بالإقبال أحوالى ؟
يا فضل لا كنت إن لم تعطنى شرفا أزهى به بين أعمامى وأحوالى
أمنك أطلب إقبالى ولست أرى سواك من سبب فى فقد إقبالى
لو أننى منك عريان لسربلنى مما أريد زمانى ألف سربال
ياليت شعرى هل أغدو إلى نفر أكارم خلطوا فضلا بأفضال
وهل أرى الأدب المجفو ينصره على الجهالة قومٌ غيرُ جهال
حرَّكتُ فى طلب العلياء من هممى وإنما يطلب العلياء أمثالى(٢)

وهكذا تشيع فى مدائحه هذه نغمة المباهاة بفضله وعلمه وأدبه ، والتنديد بقيم عصره ، فلا استجداء ولا ذلة ولا ضراعة ، بل استعلاء وسخرية ، إنه يسخر من الظالم الجاهل ، وينافح بشعره لينتزع منه حقه ، وهو لا يريد من ممدوحه إلا أن يكون منصفا ، فيعطى كل ذى حق حقه ، ويعرف أقدار العلماء والأدباء .

عمُّ الرعايا بإنصاف ، وخصُّ ذوى علومهم بعطايا الجاه والمال
يصغى إليهم ، ويصفىهم مودته ويصطفىهم بإحسان وإجمال
بل إنه يذهب مع ممدوحه إلى أبعد من هذا حين يدعوهُ إلى أن يحتكم فى أمره إلى العقل ، فلو فعل ذلك لما أثر على تقريبه واصطفائه وترشيحه شيئا :

أولى بمثلك ترشيحى وتربيتى لو قست ذلك من عقل بمقياس(٣)

١- انظر ص ٥٩ من هذه الدراسة .

٢- الديوان ٢٣٢ .

٣- الديوان ٢٤١ .

إنه لا ينشد كريما تتدفق عطاياه بلا حساب ، وإنما يطلب عاقلا يحسن اختيار الرجال ويعرف كيف يصطفى نوى الكفاءة منهم .

بل إنه كثيرا مايقف منهم موقف الناصح الخبير، فيقدم لهم من توجيهاته فى السياسة والدين ما يضمن لعملهم النجاح ولملكهم الاستقرار، من مثل قوله لأحدهم :

خذ ما استطعت بالاحتياط ، فإنه نعم النصورُ على العدو وإن عتا
حتى إذا رامت لأسلـتـك العدا - حاشاك - نحتا لم تصادف منحتا
حاول براءة ساحة مع أنه ليس البرئ بعدام متعننا
وأنف من الزاد الخبيث ، فمن رعى مرعاه أذعن للهوان وأخبنا
لا ياكل السحتَ الكريمُ ولم يزل من ماله الأيامَ إلا مُسْحَتَا(١)

وكانى به وقد اطمأن إلى مكانته فى عصره ووعى رسالته فى مجتمعه فأراد أن يأخذ بأيدي ممدوحيه إلى الحياة المستقيمة ، وأن يوجههم إلى مافيه خير الأمة وإعلاء راية الدين ، فهو ينصح بالتقوى والعدل والإنصاف والسهر على راحة الرعية ، وجمع الكلمة ، وتأمين الدولة من أعدائها، ونبذ الاقتتال، وغير ذلك مما نجده مبعوثا فى قصائد مدحه، من مثل :

وأبهة الملك العواطفُ واللهى والوية لا الطبل والبوق والصنج
وحربٌ تعز الدين والمسلمين ، لا حرابٌ تزجىها الديالم والزنج(٢)

وهكذا اتخذ الزمخشري من مدائحه وسيلة إلى الإصلاح السياسى والاجتماعى والدينى والخلقى ، فجاءت معبرة إلى حد كبير عن نزعتة الدينية واتجاهاته الأخلاقية، ولا تكاد معانى مدحه تخرج عن هذا الإطار .

١- الديوان ٣٣٥ . والمسحت: المال الذي هلك كله.

٢- الديوان ٣٧ .

فإنذا كان ممدوحه ملكا راقه منه أن يكون يقظا، حسن التدبير، يوفر الأمن
لمملكته ، ويؤرق عينه لتنام رعيته هادئة آمنة :

وأرقد عين الملك بعد سهادها ووكل بالتدبير عينا مؤرقة^(١)

وأن يرد عن المسلمين كيد أعدائهم فى يقظة عقل وشجاعة قلب؛ ليوفر لرعيته
الأمن والطمأنينة:

كان إقليمه مما يحصنه من كيد كل عدو خيس رثبال

المسلمون نيام فى مراقدهم وأنت يقظان ، سار بين أهوال^(٢)

وأن يكون كيّسا حازما داهية حكيما :

حازم يعرف فى عين المداجي ماأجنّ القلب من داء عياء

ليس يكفى كل سيف وقناة بعض مايكفى يحزّم ودهاء^(٣)

ولاينسى حميد الأخلاق حين يتحدث عما يزين ممدوحه، فيقول :

فتى ماجد حلأه علم وعفة وزينه أكرومة وحياء

ترى الماء يجرى فى أسارير وجهه كما مار فى صفح المهند ماء^(٤)

ويقول :

شمخت رتبته فوق الثريا وهو لم يشمخ بأنف الكبرياء^(٥)

ويروعه من ممدوحه أن يكون بارا تقيا، لايميل مع الهوى ولايفتنه عن طاعة

ربه شئ :

إلا إن حق المدح بالبر والتقى هو المدح حقا ، ليس فى صرفه مزج

٢- الديوان ٢٣٣ .

٤- الديوان ١٢٢ .

١- الديوان ٩٥ .

٢- الديوان ٤٥٠ .

٥- الديوان ٤٥٠ .

فدو اللب من لم تَغْذُهُ رَضْعَةُ الهوى ولم يُصْبِه دَلٌّ ، ولم يلهه غُنْج (١)
وإذا كانت قصائد المدح قد كثرت عند شاعرنا، فلا يغيب عن ذهننا ماتضمنته
هذه القصائد من شعر يمكن أن يندرج تحت أغراض أخرى، وهو كثير قد يستأثر
بالجزء الأكبر من القصيدة ، فقلما تخلو قصيدة المدح من مقدمة طويلة في
الغزل، أو لوحات جيدة في الوصف، أو أبيات كثيرة أو قليلة في الفخر،
والشكوى، والهجاء، والحكمة .



الفصل الثانى

الرتاء

الرتاء من الأغراض التى اهتم بها الزمخشرى ، وكثر شعره فيها ، وقد جمعت مراثيه بين الندب والبكاء ، والتأبين والسلوان والعزاء .

ويمكن أن نميز فيها بين ثلاثة أنواع هى :

أ- مراثيه لأهله وأقربائه .

ب- مراثيه لأساتذته وأصدقائه .

ج- مراثيه لوجهاء الدولة .

وسوف أبسط الحديث فى كل نوع منها على حدة .

مراثيه لأهله وأقربائه :

منها رثاؤه لأمه فى مقطعة تصور فيها شدة الخطب وهول الفاجعة فيقول :

ياحادثات الدهر أمى بعدما أدركت أمى بالردى من شيتِ
رُوحى وأرواح العشيرة كلها جَلَلٌ، عذرتك أيهن غشيتِ
تالله لو أحسست أدنى خشية يوم استقل بنعيمها لخشيتِ
لو كان يرثى حادث بالنفس أو بالمال أو بكليهما لرثيت^(١)

ونجد قصيدة^(٢) على لسان أم سالحة توفيت، فهى تنعم بالجنة ، أما ابنها فهو دائم البكاء شديد الحزن لفقدها ، ومن ثم فهى تعزیه فى هذه القصيدة وترجوه أن يكفكف حزنه، ويجفف دمه، وأن يشاركها سعادتها وسرورها التى تحياها الآن، كما كان يشاركها كل شىء فى حياتها الأولى ، والأم تكنى ابنها هذا «أبا الوفاء» ولعله الشاعر نفسه ، وهى تستهل القصيدة بقولها تبين أنه قد أدى

٢- الديوان ٣٨٥ .

١- الديوان ٣٨٤ .

ماعليه من حزن وفاء بحق الأمهات على الأبناء :

أبى الوفا وفيت أى وفاء وقضيت فوق شرائط الأبناء

إيها فقد حققت فى جميع ما يحكون فى صخرٍ عن الخنساء

ثم تحته على الصبر والسلوان، فتقول :

وتعز عنى ، واسل سلوة صابر وتخط قولك : لات حين عزاء

ثم تصف له ماتنعم به فى الدار الآخرة؛ حتى تقرر عينه ويسكن حزنه،

فتناجيه :

أبنى : إنى فى الجنان مقيمة أختال بين ظليلة الأفياء

حرُّ الجحيم رضا الرحيم أعاذنى منه ، وأنزلنى مع الصلحاء

فى جنة الفردوس فوق أريكة فى قبة من درة زهراء

ثم تبين تألمها، لأنه حزين لا يشاركها سرورها، ولا يقاسمها فرحتها بقولها :

أعزز على بأن أرانى هكذا وأراك رهناً الوجود والبرحاء

أعزز على بأن تطول مسرتى وتطيل أنت تنفس الصعداء

كنّا قسىمى فرحة ومساءة ولقد سررت فلم أسيت ورائى

والقصيدة بهذا النهج تمثل طريقة جديدة فى الرثاء، حيث نجد المرثى يعزى

أهله، مطلعاً إياهم على ماخفى عنهم من النعيم الذى انتقل إليه ، فلو علموا

الحقيقة لاقتصدوا فى حزنهم ، ولا استبدلوا بالأسى سرورا وبالبرحاء غبطة

وحبورا .

والقصيدة بعد هذا أبانت عما كان بين الأم وابنها فى حياتهما من حب ووثام ،

وأفصحت عن الحزن البالغ الذى شيع به الابن أمه ، كما كشفت عن صلاح الأم

وكريم أخلاقها مما جعل الجنة لها منزلاً .

وله فى أبيه مرثية طويلة فيها عزاء وتأبين وبكاء. (١)

أما أبيات العزاء فقد استهل بها القصيدة حديثاً عن الدهر وفواجهه ، والحياة وفنائها ، وحوض الموت الذى يرده الكل ولا يصدر عنه أحد ، وكأن الشاعر بهذه المقدمة يعزى نفسه، فما نزل به - على فداحته - ليس إلا جرياً على سنة الحياة التى لابقاء لها، والدهر الذى لا أمان له، والموت الذى يتربص بفرائسه ، فإذا انقض على إحداها فلا عاصم منه ولا محيد عنه . وهى معان طالما ردها الشعراء السابقون فى مرثيتهم ، نجدها بسيطة سطحية فى الشعر الجاهلى ، وعميقة فلسفية عند شعراء العصر العباسى، من أمثال أبى العتاهية والمتنبى وأبى العلاء. وتبدو هذه النظرة الفلسفية فى الحديث عن الموت ، فعلى الرغم من أن الإنسان يكرهه وينفر منه فهو يسير إليه حثيثاً سير القطاة لاتضل مقصدها، فيقول :

شريعة الموت ورد ماله صدرٌ والناسُ فى حسو أنفاس الردى شرعُ
كلُّ له نفرةٌ منها ومركضه مثل القطاة إلى تلقائها سرعُ
ويضرب الأمثال يلون بها الفكرة ويشرح المعنى، فيقول :

مضروبة لتقضى عمرنا مثلاً أن السحابة تحبو ريث تنقشع
ومعظم خواطره فى هذا المقام يصوغها حكماً تقدم نظرتة وخبرته وفلسفته،
مثل :

لايدفع الموت رعيدياً ولا بطل لايد منه، أكاع الناس أم شجعوا
ويلتمس من مشاهد الطبيعة ما يؤكد به فكرته، فحين يتحدث عن بطش الموت،
وأنة لادافع له، يقول :

لو كان يدفع أنجى عنه مهجته فى قلة لاترام الأعصم الصدعُ
وطائرٌ فى قدامى ريشه طرُق مُحلَّق فى سكاك الجو مرتفعُ

حتى إذا انتهى إلى أن الموت كأس يشربه كل إنسان أحسن الانتقال إلى فجيعة
فى أبيه، فقال :

ولو فدت نفسُ حى مثلها لـفـدت نفسى أبى البرِّ والمالُ الذى أسع
ثم يمضى فى تأبين أبيه معددا مناقبه، فيقول :

فقدت نصحا وإشبالا ورفرفة من منعمٍ كان يرعانى ويصطنع
فقدته فاضلا فاضت مآثره العلم والأدب المأثور والورعُ
أخا طباع مصفاةً مناسبةٍ ماء السحابة ما فى بعضها طبعُ

وهنا نرى الشاعر حريصا على أن يرسم صورة كاملة لأبيه، يستقصى جوانبها ويستكمل ألوانها ، وكأنه بذلك يريد أن ينحت له تمثالا واضح الملامح والسمات ، فهو يتبع صفاته الجسمية بعد الحديث عن فضائله النفسية والخلقية، فيقول :

قريب عهد بوخط الشيب عارضه إثر الشباب ، ووحف الشعر متبعُ
يزينه بلجٌ فى حاجبيه كما يزينه فى حفافى رأسه نزعُ
ولأنه يريد لها صورة كاملة صادقة لم يفته أن يتحدث عن قلة ماله، فيقول :

من المروءة فى علياء ، متسع صدرا وإن لم يكن فى المال متسع
وهذا الاستقصاء لجوانب الشخصية النفسية والخلقية والجسمية والاجتماعية لانجده بهذه الصورة فى مرأى الزمخشري الأخرى ، وإن كان فى جميعها لا يصف الإنسان إلا بما فيه ، فلكل مرثى صفاته التى تميزه عن غيره، ثم يختم قصيدته بالحديث عن وقع المصيبة عليه ، فما أقدح الخطب حين يقع بأب يتحلى بهذه الصفات :

لو حل ما حل بى من فادح جلل بركن طوؤدٍ لكاد الطوؤدُ يتّضع
باتت على كبدي نارٌ مضرمةً على فؤادى والأحشاء تطلعُ

وهنا نحس عاطفة الشاعر تفيض لوعة وأسى ، يعبرُ عنها فى بساطة وفطرية بعيدة عن التكلف، فيتأتى لها من الصدق والواقعية ما يعطيها الحرارة والتأثير ، نحس ذلك فى هذه الصورة الواقعية التى رسمها لنفسه، وقد لَفَّه الليل وألحت عليه ذكريات أبيه :

أبيتُ مرتفقاً ، والصبر يشملنى كأننى بلهيب النار ملْتَفَعُ
ينبو بى المضجعُ المهودُ جانبهُ كأننى فوق حد السيف مضطَجِعُ
ويزيده حزناً وأسى أنه كان بعيداً عن أبيه حين مرض ومات ، فلم يتفقده فى مرضه ، ولم يرو غلته بنظرة إليه قبل وفاته :

وإن مما قرانى حسرةً وأسى وضافنى الكربُ من جراه والفجعُ
أن عاقنى شحطُ دار عن تفقُّده حتى مضى وهو من نكراى ملتذِعُ
ياحسرتا ، أننى لم أروغلتَه وغلَّتى بزمان فيه نجتمع
وبعد، فإن مرثية الزمخشري لأبيه تعد من القصائد الجيدة فى موضوعها ، حيث توفرت لها حرارة العاطفة ، وصدق التعبير ، واستقصاء المعانى ، وترابط الأفكار ، إلى واقعية الخواطر ، والبعد عن المبالغة وقلة الاهتمام بالبديع .

وله فى خاله مرثية(١) معظمها حديث عن نكد الدهر ، وفناء الدنيا ، وما يجب على الإنسان من خلع أسباب الحياة والتزود بالتقوى، كل هذا فى حكم عامة وتأملات فلسفية .

وفيهما بعد ذلك شكوى من كثرة النوائب التى حطت بساحته، فأودت بالعديد من أهله، واستأثرت بالخيار من أحبابه ، وتركته مع دهماً لاخلاق لهم، وفيها يقول:

ما للنوائب لاينفك ديدنها غشْمى ، وهجِيرُها قهرى وإذلالى

أفانتى الحظُّ فى الإخوان كَرَّتْهَا وأفنت الصيْدَ والفتيانَ من آلى
أودت بجدى ، وما أبقت أخى وطوتُ عمى ، وصادت بأسباب الردى خالى
وغيرهمُ من رجال الحى طائفة تمواً لتتَمِّيمِ أقوالِ بأفعال
وظفتُ فى هذه الدهماء بعدهمُ فما أصادف إلا زوراً أقوال(١)

رثاؤه لأساتذته وأصدقائه :

منها مرثيته فى شيخه أبى مضر(٢) ، وهى مرثية طويلة تسير على النهج التقليدى لقصائد الرثاء فى الشعر العربى ، فقد استهلها بالحديث عن الدنيا وتفاهتها ، والآخرة وأحقيتها باهتمام العقلاء ، والدهر وغدره ، وما إلى ذلك من معانى الوعظ والزهد ، تنبث فى ثناياها أبيات الحكمة ، فتؤكدُها وتزيدها تقريراً فى النفوس ، من مثل قوله :

وماذا الذى يغنى عن المرء عزه ولوملك الدنيا إذا دخل القبرا ؟
إذا عصم الفقرُ الفتى من ركوبه معاصى مولاة فما أحسن الفقرا
وإن بنات الدهر أعداء أهله فأجهلُ أهل الدهر من يأمن الدهرا

ولا يفوته أن يستخلص العبرة من أحداث التاريخ ، فيقول :

أيا عامر القصر المشيدُ رافعا علا ليه قل لى : فمن يعمر العمرا
لقد رفع الإيوانَ كسرى فهل حمى أوانَ أتاه الموتُ إيوانه كسرى

ثم ينتقل من هذه الخواطر العامة إلى الحديث عن المناسبة الخاصة بهذا البيت :

وما زال موت المرء يخرب داره وموت فريد العصر قد خرب العصرا

ونظرة إلى هذه القصيدة ترىنا كيف تحكمت آفة الصنعة والتكلف فى الشاعر عند نظمه إياها؟ وآية ذلك هذه المحسنات البديعية التى تزخر بها أبياتها ، بما تنم

١- الديوان ٢٥٠ .

٢- الديوان ١٠٦ .

عنه من جهد ذهني لا يقدر على بذله إلا من هدأت عاطفته ، ونشط عقله ليديج
هذه الزخارف اللفظية، كما فى قوله :

ونهنهت عيني أن تَضن بدرها على رجل مازال يمنحني الدرأ
وصفر خدى ثم بيض مفرقى رزية من لم يمنع البيض والصفرا
ومثل قوله :

مضى الحبرُ والبحرُ الذى لم تصب له على الغوص والتطواف شطا ولاقعرا
وسمة ثانية لهذا التكلف نجدها فى هذه الصور المتتابعة بما فيها من مبالغات
تنم عن التصنع والافتعال وانبتات الصلة بينها وبين وجدان الشاعر علي ما نرى
فى هذه الأبيات :

أغار إذا ما أعرض البحرُ طاميا ولم أر إلا ناضبا ذلك البحرا
ويُسَخِنُ عيني أن أرى البدر طالعا وأن الليالى غيببت ذلك البدرا
وتشخص بى زهر الكواكب غيرة إذا ذكرت نفسى مناقبه الرُّهُرا
فإن لاح لى بدر وبحر وكوكب تعاميتُ أو أوليتها نظرا شُررا
وما كان حقى أن أشببه بها فقد كان أعلى من ثلاثها قدرا
عجبت من الأشجار تورق بعده ولا تحرق الأشجارُ أغصانها الخضرا
وقلت لسارى المزن هلاً بكيتَه وأنت الذى آخى أنامله العشرا
فقال: وهل أبقت لى اللوعة التى تنشَف ماءَ البحر نيرانها قطرا

إن هذه الأبيات تطلعنا على مهارة الشاعر فى نسج هذه الصور ، وعلى تمتعه
بمخيلة ثرة يمتاح منها كما يشاء ، ولكنها بتراكم صورها ومافيهما من مبالغة
مسرقة ، وحرص على البديع تدل على أنها وليدة ذهن متوقد لا عاطفة جياشة .
وأية أخرى فى هذه القصيدة على تصنع الشاعر فى رثائه ، وأعنى بها هذا

الاستطراد الذى استهوى الشاعر فمضى يصف شجاعة قوم المرثى، وكأنه يصف فرسانا فى معركة وصفا يطيل فيه، ويرسم تفاصيله، حتى ليكاد القارئ ينسى فى غماره الرثاء والمرثى، وما أظن عاطفة الرثاء الصادقة مهياة لمثل هذا الاستطراد؛ لأنها لاتصطبغ إلا بالألم ولاتنحرف عن المرثى، هذا الاستطراد الوصفى نجده فى قوله :

ولو كان هذا الموت يمكن دفعه
وبيضاً إذا الأعماد عنها تحسرت
بأيدي كماء ساوروا العز، وابتنوا
فما عرفوا غير العجاجة ليلة
على ضمير لو أنهم سلكوا بها
إذا جالت الفرسان فى سهواتها
جمعن شيات الخيل، لكن تخضبت
ترى كل مهر كالنعامة سابحا
أسنتهم زرق، وزرق عيونهم
يحرصهم من آل ضبة فتية^١

إذا لأقاموا دونه الأسل السُمرا
أهل عطاش الركب تحسبها غُذرا
بضرب الطلى والطنن فى الثغر الفخرا
وغير ضياء المشرفى له فجرا
ضمائر أقوام لأنفذنها ضمرا
أفاض على هاماتها الصمد النصرا
نجيعا فعادت كل أوانها شقرا
بكل غلام باسل يشبه الصقرا
فإن يغضبوا أو يطعنوا انقلبت حمرا
سموا غير أعمار ليقتحموا الغمرا^(١)

ومهما نجح الشاعر فى عقد الصلة بين هذا الوصف لفرسان بنى ضبة، ورثاء عميدهم وشيخهم أبى مضر، فإن هذا الاستطراد الطويل يجعلنا نتشكك كثيرا قبل أن نقرر أن وراء رثائه هذا عاطفة تجيش بالحزن وتفيض بالأسى .

وله فى صديقه محمد بن أرسلان مرثية^(٢) يستهلها بالحديث عن هول الفاجعة، حتى لقد أصيب فيه العلم والإسلام، ويبكى فضائله وعلمه وشعره، ثم

٢- الديوان ٢٦٢ .

١- الديوان ١٠٩ .

يذكر ماكان بينهما من ود صادق، مؤكداً أنه سيظل وفيًا له بعد موته، فيقول :

حبل الهوى بيننا كانت مريرته شزرا ، وذلك حبل غير منتكث
إنى حفىً وفىً بالصدىق وإن طالت به تحت رمس مدّة اللبث

ثم ينحى باللوم على الليالى التى لاتزال تكيد له فتختطف من عالمه خيرة
الرجال ولاترك له إلا كل غادر خبيث، فيقول مستطردًا فى هجاء هذا الصنف :

بقيت بعد وفاة لاتخيس لهم عهد على نفر غدارة نُكثُ
بقيت بعد مصاليتِ الرجال على قوم هم نظراء النسوة الطُمثُ
لم يعرف الطيبُ منهم ، لا ولا عرفوا ما الطيبُ، تبا لتلك الأنفس الخبثُ
صاغوا الحلى لا العلى زينا لأنفسهم لولا الحيا قرطوا الأذان بالرُعثُ
لم يخل من خبث فى الطبع أرجلهم وكيف يستبرئ الخنثى من الخنثُ
يمشى ببطن قد انداحت أسافله كأنه الكلب لا ينفك من لهثُ

وهكذا يمتزج الرثاء بالشكوى والهجاء ، ولكن تبقى الصلة قوية بين هذه
الأحاسيس المتنوعة فلا تخرج بها عن الجو العام للرثاء، جو الحزن والأسى الذى
سببه فقد صديقه ، فإذا شكّا فإنما يشكو دهرًا فجعه فى هذا الصديق ، وإذا هجا
فإنما يهجو قوما ساءت طباعهم، وهم من ادخرهم الزمن له بعد أن مضى عنه
أمثال صديقه من الوفاة المصالييت .

ومعظم مراثيه فى أصدقائه لاتتجاوز هذا النهج ، تذكر الفجيعة وهولها ،
وتثنى على المرثى ، وتشكو الدهر ، وتذم من بقى بعد الفقيد ممن تجمعت فيهم
خلال السوء .

رثاؤه وجهاء القوم:

كانت للزمخشري صلوات متنوعة بوجهاء القوم وذوى النفوذ منهم ، وكان
يمدحهم فإذا توفى أحدهم فقد يرثيه بقصيدة يشيد فيها بمناقبه ، ويصور فداحة

الخطب ، والخطب هنا ليس خطبه فقط وإنما خطب المجتمع كله .

ومن هذا النوع قصيدته فى رثاء السلطان السلجوقى محمد بن ملكشاه^(١) يستهلها بمقدمة عن قضاء الله ونفاذه ، ويقدم العبرة من المناسبة، فالمرثى هنا سلطان لم تحمه من الموت قلاعه ، ولم تردّه عنه جيوشه وحراسه ، ولم يغن عنه شيئاً غناه وجاهه، فما أقوى الموت وأشد بطشه، وما أعدل شريعته :

قضاء ريك حد غير مسبوق	باب يساق إليه كل مخلوق
سيان من ليس مرموق المحل وذو	جاه بأبصار كل الخلق مرموق
ورب تاج وديباج يجرره	كذى كساء رقيق الجيب مفتوق
حُجِبَ الملوك يد المقدار تخرقها	كم من حجاب بكف الدهر مخروق
ولا ترد الردى بيضُ السيوف ولا	سُمُ الرماح ولا زرق المزاريق
ولا قلاع منيفات مُحَصَّنَةٌ	بذادة ورماة بالمجانيق
والمرء يؤتى من الشقّ الذى بعدت	عنه مخيلة ذى حدسٍ وتحقيق
ألم تر الشهمة الزباء كيف أتى	هلاکها من رجال فى الصناديق

وهى - وإن كانت خواطر عامة صاغها حكما مقررّة - وثيقة الصلة بالمناسبة التى أحسن استخلاص العبرة منها .

فإذا فرغ من هذه المقدمة انتقل إلى المرثى فأشاد بصفاته ومآثره، ومما قاله فى ذلك :

محمد بن أبى الفتح الذى تركت	أوصافه لكنة فى كل منطيق
ابنُ السلاطين من أبناء سلجوق	وابنُ الغطاريف منهم والغرانيق
لله من عادل من حق سيرته	ونصره الحق أن يدعى بفاروق
مستوجب من جموع الشرك مبغضة	محبب فى بنى الإسلام مرموق

ويمضى معددا متتابعه، مشيدا بجهاده ونشره الأمن ورعايته لأمر الدين، ثم يختم القصيدة بالإشادة بمن تولى بعده من آل سلجوق، داعيا له بالتأييد والتوفيق .

وقد تكون القصيدة تعزية لأحدهم فى قريب له ، ومن ذلك قصيدته التى يعزى فيها عبید الله فى ابن له توفى صغيرا .(١)

والقصيدة تسجل للزمخشري قدرته الفنية فى التأبين، فعلى الرغم من أن الفقيد هنا طفل ليس له من المآثر والفضائل ما يعدهه الشاعر فى هذه المناسبة، فإن موهبته لم تخذله فى هذا الموقف، فأجاد فى تأبينه مازجا الثناء عليه بمدح أبيه وقومه ، ويمكن أن نتأمل ذلك فى أبياته التى استهل بها قصيدته أروع استهلال:

يا كوكبا فى سماء المجد قد غارا

ويا هلالا مضى لم يلق إدارا

قد أعجلتك الليالى أن ترى قمرا

تمأ سوى أنك استكملت أنوارا

كذاك أبناء أهل المجد إن طلعا

أهلاً حُسبوا فى النور أقمارا

يا غصنُ أورقتَ لكنَّ الليالى لم

تنظر فتجنى منك الناسُ أثمارا

إن كنت مثل ابن مزن فى طهارته

فقد يضاهى أبوك المزن مدرارا

ثم تختم القصيدة بحث الأب على الصبر الجميل احتسابا للأجر والثوبة ، ولعل مما يؤخذ على الشاعر فى هذا المقام بيته الذى قاله فى معرض الحث على الصبر وترك البكاء(٢).

والجدير بالتسجيل هنا أن هذا النوع من رثائه لوجهاء القوم يغلب عليه العزاء والمدح ، وقد لا يبدو فيه أثر للحزن على المرثى، لاسيما إذا كانت المرثية امرأة لم تربطها بالشاعر صلة فى حياتها ، إننا حينئذ نجدنا لاتظفر من قصيدة الرثاء إلا بالقليل، بينما يذهب جل القصيدة فى مدح المعزى ودفع الحزن عنه ، وفى سبيل

١- الديوان ٢٥٣ .

٢- البيت رقم ١٥ ص ٢٥٣ وفيه يقول :

يحك النساء يبرقع وجهه عارا

والدمع بالخد من زى النساء ومن

ذلك قد نجد تهوينا من شأن المرثية، حتى إنها لتصبح غير خليقة بأن يشتد الحزن عليها، فحسبنا أن يبقى المعزى . نرى هذا فى قصيدته التى يعزى فيها شمس المعالى فى فقيدته شمس النساء، فيقول :

على تاج النساء الشمسُ تبكى	توافقُ صنوها شمسَ المعالى
وتندبها الليالى لابساتٍ	حدادا والنجومُ مع الليالى
لئن تاج النساء مضتُ وفاتت	لقد أبقت لنا تاج الرجال
وأربابُ الحجا إن يسلموا لم	أبال بموت ربأت الحجال
بنو الأيام لو ماتوا جميعا	وعاش لنا وحيدا لم نبال
عزيز مثلله كرما ومجدا	وخذ أمثالهم عدد الرمال(١)

ولا أدرى أي موقع وقعه هذا الشعر من قلب المعزى ، وأرى أن الفقيذة إذا كانت عزيزة عليه فإنه سيؤله هذا العزاء، ولاسيما ماجاء فى البيت الرابع الذى بدا الشاعر فيه غير مبال بما حدث ، وماأظن أن أبيات المدح تغنى غناء المشاركة الوجدانية التى يحتاجها المعزى، وافتقدتها هذه الأبيات .



الفصل الثالث

الحنين والشوق

شعر الزمخشري في الحنين والشوق جاء تعبيراً صادقاً عما خفق به قلبه من حنين إلى أماكن أحبها ، وشوق إلى أناس تعلق بهم وتعلقوا به ، ويمكن أن نقسم شعره في هذا الغرض أقساماً ثلاثة:

أ- قصائد يعبر فيها عن حنينه إلى مكة وشوقه إلى شريفها ابن وهاس .

ب- قصائد يعبر فيها عن حنينه إلى وطنه وشوقه إلى قومه به .

ج- قصائد يعبر فيها عن شوقه إلى من فارقه من أساتذته أو تلاميذه أو أصدقائه .

وفيما يلي حديث عن كل نوع من هذه الأنواع :

شعره في الحنين إلى مكة والشوق إلى ابن وهاس :

سبق الحديث عما كان من شاعرنا في الطور الثاني من حياته من حب لمكة وتعلق ببيتها الحرام وهيام بمقدساتها .^(١)

وقد صور شعره تلك الأحاسيس في قصائد كثيرة سميت «المكيات» وجاء ترتيبها متقدماً بين قصائد الديوان مما يعكس مكانتها الأثيرة عنده .

وفي ضوء ما عرفناه عنه في الحديث، عن رحلة عمره يمكن القول بأن قصائده في الحنين إلى مكة قد أنشئت في فترات ثلاث، أولاً: حين أبل من مرضته الناهكة، وعقد العزم على أن يترك الدنيا بأوضاعها، ويتجه إلى الدين مؤثراً جوار الله علي التزلف إلى الملوك والسلاطين ، فقد هفا قلبه إلى مكة ، وتعلق بالبيت الحرام ، وأصبح رحيله إلى مكة وقضاؤه مناسك الحج أملاً عزيزاً يداعب خياله، ويطلب من الله تحقيقه، ومن ذلك قوله :

١- انظر ٦٧ - ٧٣ من هذه الدراسة .

يأليت شعري والحوادث جمّة
هل فى قضاء الله أنى قادم
فمقبل الحجر الممسح مُصقفا
فبذلك البيت المستر طائف
والغيبُ فيه للحكيم سرائرُ
أمّ القرى فإلى البنية ناظرُ
خدى به وعليه دمعى قاطرُ
فى ثوبى الإحرام أشعثُ حاسرُ^(١)

ويمضى هكذا معددا مناسك الحج التى يصبو إلى مشاهدتها، ويشتد به الحنين إلى أم القرى فيملك على القلب أقطاره، إنه يشتاق إلى ذكر اسمها، فعنده يخفق القلب ويشرق الوجه، وفى ذلك يقول :

فؤادى إذا أمّ القرى مرّ ذكرها
ويصبح وجهى شاحبا فإذا جرى
أيا حبّذا سوقى الركاب ملبّيا
وليلةُ جمع والبكور إلى منى
ووطء بساط الرحمة المبتغى وأن
تذكرتها فارفضُ صبرى وقوتى
يرفُ رفيف الأحقوان منورا
تبلّج وجهى كالصباح وأسفرا
إلى عرفات أشعث الرأس أغبرا
وعن مسجد الخيف انحدارى مجمرا
أهرول فيه حالقا ومقصرا
ولا بد للمشتاق أن يتذكرا^(٢)

أما الفترتان الأخريان اللتان أحس فيهما الحنين الشديد إلى مكة فهما الفترتان اللتان أعقبنا رحيله عن مكة بعد جواره الأول ، ثم بعد جواره الثانى .

وشعره فى هاتين الفترتين يفيض ندما على تركه مكة، ويمتلئ أسى وحسرة على البعد عنها ، وتغنيا بذكرياته فيها ، وشوقا وحنينا إلى العودة إليها ، ومما يصور هذه الأحاسيس قوله :

هو النفس الصعّادُ عن كبد حرّى
سريتُ بشخصى لابقلبى وهمتى
إلى أن أرى أم القرى مرة أخرى
وهيهات مالالأخشبين وللمسرى

مقيمَان عند البيت ماذكت الشعري
 طوافهما فى الطائفين به تترى
 وقد لج بى جهد الصبابة واستشرى
 وجيف المطايا ؟ يالها كبدا حرى
 يمينى تصب نفسى غنيمتها الكبرى
 فلا رزقت يسرا ولا لقيت بشرى
 وأستبدل الدنيا الدنية بالأخرى
 على حرم الله استفزتني الذكرى
 ودمعا عزيز المستقى غائر المجرى
 لداعيه مهراق من المقلبة العبرى^(١)

منيخان بالبطحاء ماذر شارق
 عكوفهما فى عاكفى البيت واصب
 وماجاوزت بى بطن نخلة أينقى
 فكيف إذا خلى الحجاز وراءنا
 ليالى فى بطحاء مكة صافحى
 فإن حدثتني بعد بالسير معرقا
 أبتاع بالفوز الشقاوة خاسرا
 إذا خطرت بالبال نكرى إناختى
 أكابد ليلا كالليالى وحسرة
 وأدعو إلى السلوان قلبا جوابه

ولم يكن هيامه بالأماكن المقدسة سببه الوحيد فى الحنين إلى مكة، بل كان هناك سبب آخر أجج هذا الحنين وزاده توقدا، ذلك هو حبه الشديد لابن وهاس شريف مكة وقطينها، وقد سبق الحديث عن عرا المودة التى ربطت بين الزمخشري وهذا الشريف الذى احتفى به فى مكة أيما احتفاء وتعلق به أشد تعلق^(٢)، وحين غاب الزمخشري عن مكة لم تنقطع المراسلة بين الصديقين، وطبيعى أن يعبر الزمخشري عن شوقه الشديد إلى صديقه فى شعره، من ذلك قوله فى قصيدة يبدها بالشكوى:

أعرف قلبى بشدة الحزن
 ما حل بى من نوى أبى الحسن^(٣)
 شوقا إلى صبح وجهه الحسن

قلبى لا يعرف السرور وما
 حسبى من كل غصة وأسى
 أحيى ليالى وهى تقتلنى

١- الديوان ٣٦ .

٢- انظر ٧٠ - ٧٣ من هذه الدراسة .

٣- أبو الحسن كنية الشريف ابن وهاس على بن عيسى .

طوّل عهدي به الزمان وقد طول عهد الجفون بالوسن
أصبحت مذغاب كالغريب على أنى فى أسرتى وفى وطنى
أفكرُ فى مُستطال غيبته فكاد روجى ينسل عن بدنى^(١)

ويتعاون على قلبه الأمران معا: حنينه إلى حرم الله، وشوقه إلى ابن وهاس فكل منهما يذكره بالآخر وقد حلا من قلبه فى السويداء، وحينئذ نجد القصيدة الواحدة وقد امتزج فيها حبهما والشوق إليهما، فيقول:

فؤاد من الشوق المبرح ريان إلى حرم الله المعظم ظمانُ
يروح ويغدو ماتغِبُ سواده تباريحُ ينهين العزاء وأشجانُ
إذا جال فيه هاجسٌ من تذكُّر لمكَّة عامىً التظلت فيه نيرانُ
وأبرح مابى أننى شيقٌ إلى على بن عيسى ، لاعجُ الوجد حرانُ^(٢)

ويقول فى قصيدة أخرى مرسلا تحيته إلى حبيبه: أم القرى، وقطينها ابن وهاس مصورا حنينه إليهما:

ألا أبلغا أم القرى وقطينها تحية نفس ماتغِبُ حنينها
تحن إلى البطحاء حنةً واله بناتُ الليالى أكلتها قرينها
حكى بعد شحط الدار عرجاء شَوْحَطِ تحنِّيها منزوعة وحنينها
متى نكرت - والذكر يبتعث الأسى - بمكة عاميها أطالت أنينها
وجئتُ وذكرها الشريف هى التى تهيجُ - فما إن تستفيق - جنونها
ولولا الذى خَطَّتْ أنامله لما تلتقت إلى يوم التلاقى سكونها^(٣)

شعره فى الحنين إلى وطنه وقومه:

وكان طبيعيا أن يحن إلى وطنه وقومه به حين تطول فترة بعده عنه وعنهم،

١- الديوان ٤٨٣ .

٢- الديوان ٢٣ .

٣- الديوان ٧٢ .

وكثيرا ما كان هذا الحنين يستيقظ فى قلبه وهو فى مكة فيثير أشجانه، ويكدر عليه صفو حياته هناك، ولا يزال هذا الحنين يلح عليه حتى يستنفد فى المقاومة طاقته؛ فلا يملك إلا أن يرحل عن مكة -على حبه الشديد لها- ليقضى لبانة نفسه، ويروى غلة شوقه.

وشعره فى مكة يصور هذا الحنين إلى وطنه، ويعكس هذه العواطف المتنوعة التى كانت تتصارع فى فؤاده، حيث يتوزع القلب بين حب لمكة، وحنين إلى العراق وخوارزم، وبين تعلق بشريف مكة ابن وهاس، وشوق إلى أهله وقومه وأصدقائه بوطنه، نحس هذه المشاعر فى قوله حين ومض البرق من ذات عرق فحرك أشجانه إلى العراق ومن فيه:

أمنُ ذات عرق ومضةُ البرق تخفق	كنبضة عرق فالفؤاد مشوق
ولو لم تكن ميقات أهل العراق لم	أشم برقة من ذات عرق تألق
تسّف إلى صوب العراق عزائمي	وتزجرها أم القري فتحلق
ولى بدن صفر من القلب طارح	بأرض الحجاز الرحل والقلب معرق
هواى عراقى ، وأهواء صحبتي	حجازية ، ياشد مانترفرق
تبيت بنات الشوق تغلبنى على	قواى ، فذرعى يابنة القوم ضيق
ويخذلنى صبرى إذا أقبل الدجى	وينصرنى دمع وجفن مؤرق ^(١)

وتؤجج حنينه وشوقه رسائل قومه التى تتقاطر إليه، تحمل أشواقهم إليه، وإشفاقهم عليه من الغربية، ونصحهم له بالعودة إليهم، والشاعر يبادلهم الشوق والحنين، ولكن حبه للبيت الحرام وتعلقه بابن وهاس يمدّه بطاقات من الصبر فيقاوم إغراء قومه، وتعود رسائله إليهم لا تحمل إلا الوعود المنمقة، وفى ذلك يقول مخاطبا ابن وهاس فى نفس القصيدة:

ولولاك والبيت العتيق لطيرت
ولولاكما لم أعص قول مراسلى
ولا صدرت عنى رسالات معشرى
وكم راودونى عن «نعم» فأبيتها
وما نعم حمرٌ تساق إليهم
وقد شاقنى قومى وذلك بعدما
ولا يزال الشاعر يذكر وطنه ويحن إلى الأفه فيه، ولا يملك إلا أن يصبر؛ فبيته
وبينهم مسافات شاسعة، وصحار مضلة، وجبال مشمخرة، تفرقت فيها
عصابات الشر وقطاع الطرق، فما أكثر الحوائل التى تقف دون إرواء غلته، هذا ما
يصوره فى قصيدته إلى صديقه «الموفق» بخوارزم^(١) وقد استهلها بقوله:
إلى الله أشكوك يا ساق حراً
وفيها يقول:

يرأوح من ذكر أوطانه
يحن وكم دون الأفه
ويبداء يطرق فى طرقها
وكم دون خوارزم من غائط
أمال إلى النجم يافوخه
وكم دونها من أشابات قوم
ثم يمدح قومه، فيقول:

ولم أر فى الناس قوما كقومى

رحالى عن بطحاء مكة أينق
أطعنى فإنى ناصح لك مشفق
ومرجوعها تلميظ وعد منمق
إباء العيوف الورد وهو مرتق
كقولى نعم، لو أنها تتحقق
شققنا العصا، غرّيت عنهم وشرقوا
ولا يملك إلا أن يصبر؛ فبيته
وجبال مشمخرة، تفرقت فيها
عصابات الشر وقطاع الطرق، فما أكثر الحوائل التى تقف دون إرواء غلته، هذا ما
يصوره فى قصيدته إلى صديقه «الموفق» بخوارزم^(١) وقد استهلها بقوله:
قدحت بنوحك فى ساق حراً

ومن صبره بين حلو ومر
لأنيال عاصفة من مجر
أدلاؤها لخفاء الممر
بطين ومن جبل مشمخر
كمصغ ليفضى إليه بسر
جفاة لخير كفاة لشر

أكف أكفى لبؤس وضر

وأقعد فى فجرة تتقى
شعره فى الحنين إلى من فارقهم من أساتذته أو تلاميذه أو أصدقائه:
من ذلك قصيدته التى يعبر فيها عن شوقه إلى أستاذه أبى مضر(١) الذى كان
يمرو حينئذ، وقد استهلها بقوله:

سلام عليكم أدمعى قلماً ترقياً
وبعد أن يخلص من المقدمة يقول:
ولهفى على عصر تقضى مناسب
هو المرتضى وجها وخلقا ، وإننى
إذا الريح من شرقى مرو تنفست
ومايطببىنى الأيك إلا لأننى
وإن عصف ريح الشمال ذكرته
وتمرى مآقى الغوادى لأنها
وان مدّ جيحون تذكرت فيضه

إذا شمتُ من تلقاء أرضكم برقاً
سجايا فريد الدهر أو وجهه الطلقاً(٢)
لأشتاق ذاك الوجه بل ذلك الخلقا
فيابرد صدرى حين أنشقها نشقا
أساعد فى الشجو الحمام به الورقا
وإسراعه نحو المكارم والخلقا
تضاهى يديه كلما دفقت دفقا
بما يغمر الأذهان والألسن الذلقا(٣)

ثم تمضى الأبيات معددة مناقبه مشيدة بصفاته، حتى إذا استوفى الشاعر ما أراد
من ذلك ختم قصيدته بشكوى ما حل به وبصحبه من أحياء فريد العصر أبى
مضر بسبب فرقة لهم، مبينا أنه أخفقهم قلبا وأعظمهم شوقا، فيقول:
إلى الله أشكو أننى بعد رديتى
ببرد قشيب أرتدى برده سحقا



١- الديوان ١٠٠ .

٢- فريد الدهر لقب شيخه أبى مضر .

٣- الديوان ١٠١ .

الفصل الرابع الشكوى والهجاء

شعر الشكوى:

استقلت به بعض المقطعات، كما تضمنته بعض القصائد ضمن ما اشتملت عليه من أغراض أخرى، وإن كانت روح الشكوى والألم لا تكاد تفارق شاعرنا، فيطالعنا في معظم شعره وكأنه يعاني من شعور شديد بالغبية في هذا العصر. يحس الزمخشري بهذه الروح الشاكية الحزينة تتسرب إلى شعره فتطبعه بطابعها، ويقدم لنا هذا الإحساس في حوار له مع سليمان، حيث يقول:

تقول سليمان: مالشعرك طيبٌ	وهل طاب شعر ليس فيه نسيب؟
ربيع نفيتَ الوردَ عنه فقل لنا	ربيع بدون الورد كيف يطيب؟
فقلت لها قول امرئٍ لعبت به	صروف زمان جمَّةٌ وخطوبٌ
شكايات أزمان ملكن قصائدى	فلم يبق فيها للنسيب نصيب
إذا قلت فى شكوى الزمان قصيدة	وجدتُ القوافى ترعوى وتجيّب
وإن قلت مدحا أو نسيبا وجدتها	وعصيانها لى عند ذاك عجيب
بغيض من الأحداث يرزق منطقى	ويحرمه شخصٌ إلى حبيب ^(١)

فلماذا كثرت شكواؤه؟ ومن أى شيء كان يشكو؟

شكا الشاعر أمرين؛ الزمن وجوره وفساد قيمه، والناس وضعف دينهم وفساد أخلاقهم.

شكوى الزمن :

سبق الحديثُ عن طموح الزمخشري وما كان يرنو إليه من منصب يتسامى
وما عرف به من الفضل ، وقد برز في العلم والأدب وعُرِفَ بالخُلُقِ والدين ، ولكن
عصره يضمن عليه بهذه المكانة ، فيؤرقه إحساس بالظلم وشعور بأنه بُخِسَ حَقُّهُ ،
ويضاعف ألمه ما يراه من محاباة للجهلاء وتكريم للأراذل، فيمتلئ سخطا على
العصر الذي فسدت فيه القيم ، وضاعت فيه الحقوق وحفل بالمفارقات :

عفاء على الدنيا طويل لرفعها مناسمها السفلى على أسنماتها^(١)

إنه الجور الاجتماعي الذي اکتوى بشواظه هو وأمثاله من فضلاء هذا العصر،
فلا غرو إذا وجدناه في شعره معبرا عن هذا السخط ، شاكيا هذا الظلم ، ساخرا
من هذه الأوضاع الفاسدة، والمعايير الجائرة، مع تذكير بفضائله وتنويه بمناقبه
،ومن ذلك قوله :

خليلي هل تجدى على فضائلي	إذا أنا لم أرفع على كل جاهل
من الغبن ذو نقص يصيبُ منازلنا	أخو الفضل محقوقٌ بتلك الأفاضل
كفى حزننا أن يرغمَ الحلم والحجا	تصدرُ بادٍ طيشُهُ غيرِ عاقل
ومن لى بحقى بعد ما وفرتُ على	أراذلها الدنيا حقوقَ الأمائل
كذا الدهرُ كم شوهاء في الحلَى جيدها	وكم جيد حسناء المقلد عاطل
ومما شجانى أنْ غرُّ مناقبى	تغنيه بها الركبان بين القوافل
وطارت إلى أقصى البلاد قصائدى	وسارت مسير النيرات رسائلي
وكم من أمال لى وكم من مصنّف	أصاب بها زهنى محزُّ المفاصل
ولى في دقيق النحو والنقد منطِقٌ	إذا قلت له لم أبق قولاً لقائل

غَنَى مِنْ الآدَابِ لِكُنْنِي إِذَا نظرتُ فما في الكفِ غيرُ الأناملِ
فياليتني أصبحتُ مستغنيا ولم أكنُ فخرَ خوارزمِ رئيسَ الأفاضلِ
وياليتني مرضي صديقي ومسخط عدوى وإنِّي في فهامةٍ باقلِ
فلست بفضلي بالغا ولو أنني كقس إِيادِ أو كسحبانِ وائلِ (١)

وعبثا يحاول الشاعر أن يتخذ من فضائله سلما يرقى به إلى المنزلة التي يطمح إليها في مجتمعه ، فقد هبطت قيمة هذه الفضائل ، فلا اعتراف بها ولا تقدير لها ، وينعى الشاعر فضله في أسلوب يصم العصر وقيمه ، فيقول :

يافضلُ لاكنتَ إن لم تعطني شرفا أزهى به بين أعمامِي وأخوالي
أمَنك أطلب إقبالي ولست أرى سواك من سبب في فقد إقبالي
لو أنني منك عريان لسربلني مما أريد زمانِي ألفَ سربالِ (٢)

لقد شقى الزمخشري بما كان خليقا أن يسعدَ به ، شقى بفضله وعلمه وأدبه فما أعرَّجده ، وما أكثرَ همه :

ألا ما أقل سرورى بما أصبتُ وهمي ما أكثره
شقيتُ بما هو سعدُ السعد فليله جدِي ما أعثره (٣)

ولا يألُو الزمخشري زمانه سخريَّةً واستهزاء بقيمه ومقاييسه التي انقلبت رأسا على عقب ، حتى إنه ليطالب منه أن يغيض النظر عن فضائله ، وأن يعامله كما يعامل الأراذل :

فوقَّع إلى هذا الزمان فإنه غلامك يجعلني كبعض الأراذلِ (٤)

ولا يهادن الزمان شاعرنا ، بل يناصبه العدا ، ويعلنها عليه حربا شعواء ، وكأنه موتور ينتقم أو حاقد ينفث أضغاثه ، ويشكو الشاعر ذلك ، فيقول :

٢- الديوان ٢٣١ .

٤- الديوان ٧١ .

١- الديوان ٧٠ .

٣- الديوان ٥٢٩ .

ولم تزل تلعب النواذب بي كأن دهرى على مضطغن(١)

وعبثا يستعين الشاعر بزمنه على قهر أعدائه ، وما أشبهه حينئذ بمن
يستجير من الرمضاء بالنار ، فإن الزمن آلد هذه الأعداء :

أطلب قهر العدو من زمنى وإن أعدى عدوى الزمن(٢)

وإنها عداوة شديدة ، وحرب غير متكافئة تركت الشاعر نضوا مكدودا :

لم يترك الدهر لى قلبا أحس به بغض البغيض ولا ودا لمودود

طافت بممّتحن ضاق النطاقُ به نضو بطارقة الأيام مكدود(٣)

ولكنه عدا لا يدهش الشاعر ، وموقف من الزمن ليس بمستغرب ، فهذا ديدنه
مع كل أريب فطن أديب كريم النفس :

وهكذا الدهر حرب كل فتى يقال فيه الأريبُ والفظن(٤)

ولست أنكر أن الجد يعثرى كذلك كل أديب غير مجدود(٥)

لكنه الدهر مازالت حوادثه أعداء كل كريم النفس غيداق(٦)

شكوى الناس :

وإذا كان الزمخشري قد شكا الزمن جوره عليه ومعاداته اياه ، فقد شكا من
الناس مرض نفوسهم وقلة وفائهم ، وفساد أخلاقهم ، وضعف دينهم ، إنه يشكو
كثرة حاسديه وإن كان يرى ذلك أمرا طبيعيا ، فكلما زادت فضائل الإنسان كثر
أعداؤه وحاسدوه :

أرى حسدى ملء الأباطح والذرى صدورهم فى مثل غلى المراحل

على حسب الفضل العدا وعداهم وكل عدا من حاز كل الفضائل(٧)

٣- الديوان ٢٢٠ .

٢- الديوان ٤٨٧ .

١- الديوان ٤٨٧ .

٦- الديوان ٢١٧ .

٥- الديوان ٢٢٠ .

٤- الديوان ٤٨٧ .

٧- الديوان ١٩٦ .

ويشكو قلة إخوان الصفاء، فيقول :

الا إن إخوان الصفاء قليلٌ فهل لى إلى ناك الصفاء سبيل؟ (١)

لقد خبر الزمانَ وعجم الناس فروعه ما علم من ندرة الأصدقاء وفساد الخلال ،
وهاهو ذا يقدم خبرته فى هذا المجال :

قل لباغى الصديق رمتُ عزيزاً ما أتل الصديق فوق المُقلَّة

لو علمتَ الزمان والناس علما مثل علمى لما رضيتَ بخُلَّة (٢)

لقد رحل الأوفياء عن دنياه ، وبقي هو مع نفر غدارة نكث، فما أشقاه بهم :

بقيت بعد وفاةٍ لاتخيس لهم عهدٌ على نفر غدارة نكثٍ

بقيتُ بعد مصاليت الرجال على قومٍ هم نظراءُ النسوة الطُمثُ (٣)

كما مرضت النفوس وساءت الأخلاق ووهت عُرا الدين :

شح مطاع ، هوى فى الدين متبَعُ فسقُ صُراح ، قلوبُ الغلِّ والحسدِ

لاخصلة من خصال البرِّ واحدةٌ لاهمة لاتقى لاخيرَ فى أحدٍ (٤)

وهاهو الفسق قد شاع ، وأسرف الناس فى ارتكاب المآثم، حتى حل بهم غضب

السماء فتنا هوجاء تعصف بهم ، وهم فى غيهم سادرون لايرعون ، ومن

يغضب للدين إذا لم يغضب الزمخشري الذى وهب نفسه وحياته لخدمته ؟ إنها

مآثم تترك كل ذى عقل كمدا حزينا :

هذا وإن أحق البائقات بأن تبیت أهل النهى مستشعري الكمدِ

مآثم ركبت حتى استحق بها ماحلٌ بالناس من شؤم ومن نكد

وإنهم خائضون اليوم لجنتها جياشة الموج ترمى الشط بالزبدِ

لاينتهون ولايلقى لما اجترحوا بالا أخو فطنة ماش على جدِّ (٥)

١- الديوان ١٣٤ .

٢- الديوان ٥١٧ .

٣- الديوان ٢٦٣ .

٤- الديوان ٢٩١ .

٥- الديوان ٢٩١ .

شعر الهجاء:

شعر الهجاء قليل عند شاعرنا، كما أنه شديد الصلة بالشكوى؛ ذلك لأن معظمه يأخذ الطابع الاجتماعى أو الدينى، فهو فى هجائه غير على الأخلاق والدين، يذم كل من يتهاون فيهما وما أكثرهم فى عصره، وبهذا يلتقى عنده شعر الشكوى والهجاء، وهو ماسوغ جمعهما فى حديث واحد، فمعظم أهاجيه شكوى تأخذ طابع الحدة وتنزع إلى البذم.

من ذلك هجاؤه لمن حادوا عن الحق، واتبعوا شهواتهم فى معرض حديثه عن أهل التقوى الذين تمسكوا بالحق:

قد ارتكزوا فى موطن الحق ثبُتًا وأكثرهم عن مركز الحق حائضُ
ترى سابحا منهم قفا شهواته كما عاد مهزُّ يطلب الخيل قامصُ
حراص على الدنيا، سراع وراءها وما الحرص إلا للديانة حارصُ (١)

وقريب من هذه المثالب ما يهجو به أهل خوارزم، حيث يقول فيهم:

قوم من الخير عقم لاخلق لهم وبعضهم إن يلد أكرومة يئد (٢)

وفى مجال الهجاء الشخصى لآنجد له إلا نموذجين، الأول مقطعة من بيتين فى هجاء عبد العزيز، يقول فيهما:

لعمرك ما عبد العزيز بكافل رضى مساعيه، وما هو بالكافى
وإنك واستسقاء مثلك مثله كما استظهر الدلفين بالسملك الطافى (٣)

والنموذج الثانى يهجو فيه المغربى وأتباعه وهم خصومه فى مذهبه الاعتزالى، وهى أبيات أتت فى قصيدة مدح بها ابن وهاس، وشكره على مناصرته إياه على هؤلاء الخصوم، وفى ذلك يقول:

١- الديوان ٩ .

٢- الديوان ٢٦١ .

وقد نبحت كلابُ المغربى
تنشُبُ فى الهاة وفى المرى
ووقعا للأكف على القفى
على ظهر الحلولى الشقى
مراضيه إلى الأجر السنى
بقية إرث دين جاهلى (١)

زأرت وراء دين العدل زأراً
فقد أشجيتهاً بكل عظم
وسمت الورق تحت الزرق صغراً
وفاقرة من الجلدات حلت
ومن يغضب لدين الله يجمع
وليس الجبر والتشبيه إلا

وقريب منه هجاؤه لحاسديه مبينا سبب حقدهم عليه :

أنى من السسؤدد فى بؤبؤ
تيارها ينشق عن جؤجؤ
أخرج منها فاخر اللؤلؤ
كصعوة فى مخلب اليؤيؤ (٢)

اضطر حسادى فبأءوابه
وأنى السابح فى لجة
وأنى الغائص فى غورها
لذالك كل منهم صاغر

قوما لهم حول سهلى نُهاق
يقبل للمضمار إلا العتاق
فهى رباح نَفَخَتْ فى زِقاق
سلام رِقاق ، ووجوه صَفِاق
تغلظ عن فهم المعانى الدقاق (٣)

وهجاؤه لغيره من شعراء عصره
ولاتعر سمعاً ولا ترعه
فالفارس العارف بالخيل لا
ويحك لاتعجبك أجسامهم
تجمع الأضداد فيهم فأح
قولهم غث ، وأذهانهم

تعليق على شعره فى الشكوى والهجاء :

وإذا كان لى تعليق على شعر الزمخشري فى الشكوى والهجاء ، فهو أن شعر

١- الديوان ٢٦٦ - ٢٦٧ .

٢- الديوان ٤٦١ .

٣- الديوان ٤٧١ .

الشكوى عنده يتسم بالصدق الوجداني؛ ذلك أنه تعبير عما يعاينه الشاعر من أسباب هذه الشكوى بأنواعها: من الجور الاجتماعي والانحلال الأخلاقي والتحلل الديني ، وكلها آفات ومآثم تأبأها نفس طبعت على الطموح والإبء ، وتأصلت فيها قيم الأخلاق ، وكان للدين فيها مكانة مقدسة ، تلك نفس الزمخشري، فإذا جاء شعره شاكيا هذه المآثم فإنما هي شكاية القلب وألم النفس .

وسمة أخرى لشكاياته ، هي أن العنصر الشخصي يكاد يتوارى فيها ، فهو يشكو من أجل الفضيلة بصورها المختلفة ، صورة العدل الاجتماعي الذي يضع كل شيء في موضعه ، ويعرف لكل إنسان قدره ، وصورة الأخلاق النبيلة والطبائع السوية ، وصورة التمسك بأهداب الدين والاعتصام بحبله ، والتقديس لشعائره، وحتى عندما يشكو جور الزمن عليه يعطى شكواه الطابع العام ، فيجعل هذا الجور جورا على أهل الفضل وذوى الحق ، وهذا مايزيد من قيمة هذا الشعر عند الزمخشري بما يعكسه لنا من حياة المجتمع ، والتيارات التي ماج بها فى هذا العصر، ومايبينه من العنت الذى لاقاه ذوو العلم والأدب والدين فيه .

وما قيل عن شعر الشكوى ينطبق على شعر الهجاء، إذا تجاوزنا عن هذه الأبيات التى اتخذ الهجاء فيها طابعا شخصيا ، هذا إلى أنه فى هجائه قد سما عن فاحش القول وبذئء الكلام، وترفع عن طعن الأعراض وذكر العورات ، وهذا هو العهد بشاعر كالزمخشري بعلمه وصلاحه وخلقه .



الفصل الخامس الفخر

للشاعر مطولة فى الفخر بلغت تسعة وثلاثين ومائة بيت ، إلى جانب ماله فيه من القصائد القصيرة والمقطعات ، وماجده من أبيات الفخر فى قصائد المدح أو الشكوى .

والزمخشري عالم فاضل ، وأديب ناب ، شديد الاعتداد بفضائله ، عظيم التقدير لمناقبه ، كثيرا ماتغنى بها فى شعره فى فخر واعتزاز .

وأجود فخرياته وأكثرها حرارة ماجاءت ممتزجة بشكوى الزمن ، والسخط على قيم المجتمع الذى لم يعرف قدره ، تظللها روح الألم والأسى ، نحس ذلك فى قوله مفتخرا شاكيا ، أو شاكيا مفتخرا .

وممّا شجاني أن غرُّ مناقبى
وطارت إلى أقصى البلاد قصائدى
وكم من أمال لى وكم من مصنّف
ولى فى دقيق النحو والنقد منطِق
غنى من الآداب الكنى إذا
تغنى بها الركبانُ بين القوافل
وسارت مسيرَ النيراتِ رسائلى
أصاب بها ذهنى محزُّ المفاصل
إذا قلسته لم أبق قولاً لقائل
نظرتُ فما فى الكف غيرُ الأنامل^(١)

إن جودة هذا الشعر تنبع من صدقه ، ومن هذه المفارقة التى نجح الشاعر فى تقديمها لنا واضحة جلية فى البيت الأخير ، بعد أن مهد لها بأبياته السابقة .

ومثل هذه المفارقة المؤثرة نجدها عندما يشكو ضيم الحبيب وخسف الزمان ، على ما اتسم به من كرم النفس وعفتها وما جبل عليه من همة وفضل ، فيقول :
خليلى كم ضيم أُجرعُ كأسه
على أن نفسى لاتذام بوصمة
وخطه خسف من زمانى أسامها
وأيتما حسناء يعدمُ نامها

١- الديوان ٧٠ .

عفاف من الأشياخ إرثٌ وهمةٌ وفضل ثلاث ليس ينفى تمامها
إلى دنيات الأمور بغيضةٌ وقد نال منى كل حب جسامها^(١)

وقد يأتي فخره في أثناء الغزل ممتزجا به كقوله :

واستزلت سعاد منى رزينا ثابت الحلم، والجليم يزل
رجلاً زانه عفافٌ وفضلٌ مثل مازانها حياءً ودل^(٢)

ومنه :

أبروعنى ظبى الكناس ، وإن لى قلبا يضاهى قلب ليث عرين
أنا لا تبدلُ بالهوينى شدتى وخشونتى ليستُ تباع بليين^(٣)

وقد يأتي الفخر ممتزجا بالمدح في إطار البيت الواحد أو الأبيات المتعددة، كما في قوله يمدح عبيد الله ويشكره على كسوة أهداها إياه :

كسانى عبيد الله للحمد كاسباً فيا خير مكسو ، وياخير مكتسب
بنو خلف في المكرمات خلائفٌ وإنى فى خوارزمهم كعبة الأدب
فإن يهد من دار الخلافة كسوةً إلى كعبة الله الإمام فـلا عجب^(٤)

وغالبا ما يختم مدائحه بالبيت أو الأبيات يشيد بقصيدته ويثبه بشعره وأدبه. ومما هو جدير بالتسجيل في هذا المقام ما يلاحظ على فخر الزمخشري الذي يأتي في قصائد المدح، حيث تبرز شخصية الشاعر بفضائلها وكبرياتها إلى جانب شخصية الممدوح، لاتقل عنها إن لم تسم عليها ، وكيف لا، وهو يرى أن قصائد مدحه لا يكافئها عطاء مهما بلغ ، وفي ذلك يقول :

كسوتك اليوم حلة غلبت قيمتها فى النفاسة القيما
محكمة السنج ليس جدتها تبلى ، وإن طال عهدا قدما

٢- الديوان ٤٩٩ .

١- الديوان ٥٤ .

٤- الديوان ١٢٥ .

٣- الديوان ٣٤٧ .

يقول بعد السنين ناشرها ليله من حاكها ومن رقماً
فأولنى حلّة تكافئها فائقة لأريدها أمماً
يرفلُ كلانا فى ثوب صاحبه ثوبان ثوبُ الثناء خيرهما
كنتُ زهيراً إذا مدحت فكن أنت إذا ما منحتنى هرماً^(١)

بل إنه ليذهب إلى أبعد من ذلك فيعد مدائحه وساما على صدر ممدوحه حسبه
بها فخراً؛ لأنها مدائح شاعر فاضل :

وحسبك مفخرة أن ترى وشكرُك ملء فم الفاضل^(٢)

وقد يأتى فخره فى معرض وصف الراحلة مازجا الوصف بالفخر، فى إطار
البيت الواحد :

فوقها كالحسام ما بيديه من كلال ، ولا بحديه كلّه^(٣)

أو مستطردا من الوصف إلى الفخر فى الأبيات العدة:

بين شرحى قتودها أريحى مستطيلُ الذراع رحبُ الباع
دائم الحمل بين جنبيه قلبا واسعاً كالفضاء فى الاتساع
وله همة إلى النجم ترنو منْ معالٍ بعيدةٍ الارتفاع^(٣)
جامع النفس إن أريدت على الضيم تأبست بعزة وامتناع^(٤)

أما مطولته فى الفخر^(٥) فقد جمع فيها ماتفرق فى غيرها من فضائله
ومفاخره، افتخر فيها بكرم نسبه ، وسلامة عقيدته، وصحة مذهبه، ومناقب
أساتذته ، ونبوغه فى فنون العلم والأدب ، وأستاذيته ، وكرمه ، وصلته لأرحامه ،
وبره بأقاربه ، وصدق قوله ، وتقاه ، وعفته ، وصبره على الشدائد.

١- الديوان ٤٨٢ . ٢- الديوان ٥٢٢ .

٣- الديوان ٥٠٨ . ٤- الديوان ٤٩٤ .

٥- الديوان ١٨٤ - ١٩٥ .

ومما قاله فى هذه القصيدة مفتخرا بعلمه وأدبه :

ترانى فى علم المنزّل عالما وما أنا فى علم الأحاديث راسفا
فللسنة البيضاء فى مناجح ويبغى كتابُ الله منى المعارفا
وما أنا من علم الديانات عاطلا بأحسن حلى لم يزل لى شائفا
فكم قد وحتَ يمانى منه دفاترا وكم قد وعت أذناى منه وظائفا
وما للغات العرب مثلى مقومٌ أبى كلُّ ندبٍ متقنٌ أن يخالفنا
وليس لتثقيف الرماح كسمهر وليس كعمرو فى الرماية ثاقفا
أقيدُ عندى سرِّها وصميمها وأنفسى أشاباتِ سُدَى ولفائفا
وبى يستعيز النحوُ من أن يسوسه نهى لم يجدها الذائقون حصائفا
فقل : أين خلّى سيبويه كتابه ؟ يقل : حجر جار الله مأوى حالفنا
ومافى رواة الكتبِ راويةٌ له سوى واحدٍ فانظر فلست مصادفا
ولو لم تكن لى غير هذى فضيلةٌ لبرزتُ سباق الأضاميم راعفا
وعلما المعانى والبيان كلاهما أذف إلى الخطاب منه وصائفا
وصائفُ زيناتٍ يتيمنُ ذا الحجا وإن كان عزهاة عن اللهو عازفا
إذا ما اجتلاهنّ الحليمُ ازدهينه فرقص فوديه وهزّ المعاطفا
بنات لى أستولدتهنّ قريحتى فجئنَ هشامياتِ صدق شرائفا
نجائب قد نازعن نسبةً مقرمٍ نجيب لأنجاب ، وعفن المقارفا
وعلمُ القوافى والأعاريضِ شاهدٍ بفسحة خطوبى فيه إذ كنت زاحفا
أقرتْ بى الآداب أصلا لها ، ومنُّ رأى مشرفياتِ جحدنّ المشارفا
وديوان منظومى يريك بدائعا وديوان منثورى يريك طرائفا
هما روضتا حزنٍ تدلى عليهما حبى ربيع أرسل الدمعَ نارفا

فواها له من وارف إثر زارف تخايل وحفا بين أهضام واحفا^(١)
إلى آخر هذه القصيدة الطويلة التي لا يتسع المقام لذكرها كلها هنا .

تعليق على فخره:

وفى ختام الحديث عن فخر الزمخشري أود أن أسجل ما يلاحظه الدارس من أن فخره قد اتسم بالصدق ونأى عن المبالغة ، فلم يفتخر إلا بفضل قد عرف له ، ولم يتغن إلا بصفة قد تأصلت فيه ، ولم يته إلا بأعمال قد أنجزها .

كما كان للوجدان الدينى أثره فى معظم مفاخره ، فصفاة التى يفتخر بها هى صفاة المؤمن الذى يتقى ربه ويتخلق بما أمر به سبحانه ، بل إنه يعد هذه الأخلاق نعمة تفضل الله بها عليه .

كما يلاحظ من يقرأ شعر الزمخشري أنه كان يعرف لنفسه قدرها ، ويعتد اعتدادا كبيرا بفضائله ومناقبه وتفوقه فى مناح متعددة ، وكان شعوره بهذا التفوق لا يكاد يفارقه ، فلا عجب إذا وجدنا نعمة تعالى والتفاخر تشيع فى معظم شعره .



الفصل السادس

الحكمة

الحكمة نور العقل المضىء، ووحى النفس الملهمة ، وثمره التجارب الواعية ، وقطوف الثقافة الواسعة العميقة ، يصوغها الأديب فى عبارة آسرة فتجمع إلى صدق المعنى وعمق الفكر رونق الأسلوب وجودة التعبير .

والزمخشرى قد تهيأ له من أسباب الحكمة الكثير: من قوة القريحة ، وصفاء الذهن ، وعمق النظرة ، إلى حياة طويلة ، ورحلات كثيرة ، واختلاط بالكثير من الناس على مستوياتهم المختلفة ، ثم كانت له ثقافته المتنوعة باللسانين العربى والفارسى ، ولا يخفى ماللثقافة الفارسية من أثر فى هذا الجانب^(١) ، وهو قبل هذا وبعده عالم أحب دينه ، وأخلص لقيمه ومبادئه ، وحمل مسئولية الإشادة بهذه القيم ونشر تلك المبادئ ، يصوغها حكما فى الوفاء والتواضع والكرم، والتمسك بالحق، والقناعة والإخلاص فى العمل، والتزهد فى الحياة، والتذكير بالموت، إلى غير ذلك من المعانى الأخلاقية النبيلة .

ويتجلى اهتمام الزمخشرى بالحكمة فى أنه أفرد لها بعض المقطعات، ومن ذلك قوله مبينا أن الراضى بالمنكر كفاعله:

وإذا سفيه عضنى فى مجلس وهناك من غرر المعاشر معشرُ
فهم الألى عضوا إذا ما هم رضوا وهم الألى مكروا إذا لم ينكروا^(٢)
ومنها ماقاله فى الدينار وأثره فى قضاء الحوائج وتذليل الصعاب :
وإذا رأيت صعوبة فى مطلب فاحمل صعوبته على الدينار
يردده كالظهر الذلول ، فإنَّهُ حجر يُلَيِّن قسوة الأحجار^(٣)

١- يرى الدكتور شوقى ضيف أن تأثير الثقافة الفارسية يظهر فى جانبين : الحكم الكثيرة ،

والصور والأخيلة الدقيقة . انظر الفن ومذاهبه فى الشعر ٦٧ .

٢- الديوان ٣٨٨ .

٣- الديوان ٣٩٠ .

ويتجلى ذلك الاهتمام بالحكمة بصورة أوضح إذا علمنا أنه أفرد لها قصيدة
تربو على الخمسين بيتا وسماها «الحكيمة» (١) ، وكانت لها منزلة خاصة عنده ،
فقد كتب في مقدمتها هذا البيت مفتخرا :

وقصيدة سميتها بحكيمة قد قلتها ليقال : من ذا قالها ؟

وقد ضمنها حكما كثيرة تعكس نظرة متأملة فى الحياة والناس ، وفهما ثاقبا
لحقائق الأمور ، وتشف عن روح تهفو الى الإصلاح ، ونفس ترنو إلى الحق
والعدل والهدى وترشد إليه ، فى خشية لله واستحضار لقوة بطشه وشديد عقابه

ومما قاله فى هذه القصيدة :

وما الموت إلا حيةٌ فاغرٌ فما يَمُجُّ دُعَافَا لَيْسَ يَنْزِفُهُ الْمَجُّ
وكل امرئٍ مستهدَفٌ لِحاجة فمالهمُ عنه محيصٌ وإنْ ضجوا
وما العيشُ إلا سرحةٌ قيلَ تحتها سَيُطْرَدُ عَنْهَا الْقَائِلُونَ وَإِنْ لَجُوا
ويارب مقفو الخطا بين قومه طريقِ نِجَاةٍ ، مَسْتَوٍ عِنْدَهُمْ نَهْجُ
ولو قرأوا فى اللوح ماخطُ فيه من بيانِ اعوجاجِ فى طريقته عجوا
وكم خابط فى شبهةٍ وهو قائلٌ إلى الحق بالبرهانِ أهدي وأحتج
وكم من أسام تزدهيك بحسنها وصاحبها فوق السماء اسمه سمج (٢)

ومنها :

وليس لذى العقل اتكالٌ على أخ وخال وعم ، إنما عمك الخرج
ويحزنُ جدَّ المرء بعد طمأحه وبعد عُبَابِ الْبَحْرِ زَاخِرُهُ يَسْجُو
ومن ثبتت دون المطامع نعلهُ فواها له هاتيك مدحضة زلجُ
ولاخير فى الرأى المهلوجِ ، إنما يفيئ بخير حين خالطه النضجُ

ولم ينتفع إلا برأى محنتك ويورثُ مغص الأكل الثمر الفجج(١)
 وكثيرا ما يبدأ قصائد الرثاء والتعزية بمقدمة يمكن أن تسمى «مقدمة حكمية»
 لأنها تتضمن حديثا عن الموت والحياة والعمل الصالح والآخرة وغير ذلك ،
 يصوغه في قالب حكمي يعكس لنا خبرته وتجاربه في هذه الأمور ، مستخلصا
 العبرة والعظة من الموقف الذي قيلت فيه القصيدة .

من ذلك قوله في مقدمة مرثيته في السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه :
 قضاء ربك حد غير مسبوق باب يساق إليه كل مخلوق
 سيان من ليس مرموق أحلٌ وذو جاه بأبصار كل الخلق مرموق
 وربُّ تاج وديباج يجرره كذى كساء رقيق الجيب مفتوق
 حجبُ الملوك يد المقدار تخرقها كم من حجاب بكف الدهر مخروق
 ولا تردُّ الردى بيضُ السيوف ولا سمر الرماح ولا زرق المزاريق
 ولا قلاع منيفات محصنة بذادة ورماة بالمجانيق(٢)
 ومن ذلك قوله في مقدمة رثائه لخاله :

الدهر أنكد لا يبقى على حال مازال يُلحق إديارا بإقبال
 أيامه ولياليه موكلة بالناس فى قطع آجال وآمال
 يسرُّ مرُّ الليالى من تمر به وفى مرور الليالى مرُّ آجال
 الناس فى هذه الدنيا كأنهم ظمن بواكر تحدى ، وهى كالآل
 وللردى مشرع وراده شرع لافضل فيه على نذب لرئبال(٣)

وهى كما نرى حكم تتجه إلى الوعظ والتزهيد فى الدنيا والتذكير بالموت ، كما
 أنها تساعد على الصبر والسلوان والرضا بالقضاء الذى لامفر منه ولا محاباة

٢- الديوان ٢٥٤ .

١- الديوان ٣٦ .

٣- الديوان ٢٥٠ .

فيه ، وهى بذلك تلائم قصائد الرثاء وترتبط بها وجدانيا وفكريا .

وله غير هذه القصيدة وتلك المقطعات والمقدمات الحكمية أبيات فى الحكمة تتخلل قصائد المدح والرثاء والفخر والشكوى ، وفى هذه الأبيات نلاحظ ارتباط الحكمة بالفكرة العامة التى احتوتها ، وبالجو النفسى الذى يظللها ، وهى لذلك حكمة شاعرية نابعة من وجدان الشاعر ، ويمكن أن نتأمل صدق هذه الملاحظة فى قوله وقد هم بالرحيل عن رباع الهوان :

يسراها بالكور والأنساع مارباع الهوان لى برباع
إن سيرى فى السهّب والقاع خيرٌ من قعودى شببيه نقع بقاع
رعى روض المنى على الحرّ عار إن روض المنى وخيم المراعى
ليس بأوى إلى القناعة إلا عاجز لا يطيق كشف القناع (١)

فالبیتان الثالث والرابع حکمتان تؤكدان فكرته فى البيت الثانى ، وترتبطان بها أوثق ارتباط ، فالحكمة هنا تؤدى وظيفة فى التجربة الشعرية مما أكسبها قيمة فنية .

وإذا كانت الحكمة تأتى مفسرة للفكرة أو مؤكدة لها فقد يشفعها بما يؤكدها ويبرز معناها .

نجد هذا فى إطار البيت الواحد كما فى قوله :

وما الخير إلا فى امرئ متواضع وإن مسف المزن أخلق بالمطر
فالشطر الثانى من البيت صورة حسية أنت مؤكدة وموضحة هذه الحقيقة المعنوية ، التى تضمنتها الحكمة فى الشطر الأول .

وقد يأتى ذلك فى إطار البيتين مثل قوله :

وإذا تعاضدت العوائل فتَّ في أعضادهن قوئُ أعضاد الهمم
تالله لا يثنى عنان غضنفر تكريرُ وعوعة الذئاب إذا عزم (١)
فقد أكد الحكمة في البيت الأول بهذه الصورة الحسية في البيت الثاني، بل إنه
قد يؤكد الحكمة بأكثر من مؤكد، كما في هذين البيتين :
والحر من مجده بالجود مقترن ما المجدُ مُجْدٍ بلا جود على بشر
ماينفع النصل لولا النصرُ يصحبه أو حدة الظُفْرِ لولا جدة الظفْرِ (٢)
وقد يذكر من قصص التاريخ وأحداثه ما يؤكد ماقاله في حكمته، كما يقول :
والمرء يؤتى من الشق الذي بعدت عنه مخيلة ذى حدس وتحقيق
ألم تر الشهمة الزياء كيف أتى هلاكها من رجال في الصناديق (٣)



٢- الديوان ٢١٩ .

١- الديوان ٤١٤ .

٣- الديوان ٢٥٤ .

الفصل السابع

الغزل

قلما أفرد الزمخشري لهذا الغرض قصيدة أو مقطعة ، وجل شعره فيه - على كثرته - جاء مقدمات لقصائد فى أغراض أخرى، كالمدح والفخر والشكوى .

وهنا يبرز تساؤل عن اتجاه شاعرنا فى غزله :

أهو الاتجاه العذرى بما فيه من وجد ، وهيام ، وبكاء ، ولوعة ، وإخلاص فى الحب ، والحياة لحبيبة واحدة لا يعرف القلب سواها ؟

أم هو الغزل الحسى الذى يعشق صاحبه الجمال الجسدى ، فينشده حيث وجده ، مستمتعا به ماوسعته المتعة ، متغنيا بذلك فى ألفاظ متعففة متحرجة ، أو فى أخرى سافرة ماجنة ؟ أم هو الغزل التقليدى الذى درج عليه شعراء كثيرون لم يكتووا بنار الحب العذرى ، ولم يعرفوا حياة اللاهين بالحب المادى، ومع هذا حرصوا على أن لا يخلو شعرهم من هذا الفن ، استكمالا لأزاهير الروضة الشعرية ، وسيرا على نهج قد رسمه سابقوهم من الشعراء، حين بدأوا به قصائدهم فى الأغراض المختلفة ؟ وفى شعراء هذا الاتجاه يقول الدكتور طه حسين: «وربما كان كلفهم بالفن الشعرى والإجادة فيه أشد من كلفهم باللذة لأنها لذة ، أو بالعفة لأنها عفة ، فلم يكن أحدهم يعنيه أن يقال : إنه ماهر فى تذوق لذات الحياة ، أو أنه مثال للعفة وطهارة القلب ، وإنما كان يعنيه أن يقال : لقد تغزل فأجاد الغزل ، وشبب فأحسن التشبيب» (١)

أغلب الظن أن غزل الزمخشري ليس من النوعين الأولين ، فحياته وسيرته لاتقدمان لنا شاهدا على أنه أحب حب العذريين، أو لها وعبث واستمتع بالنساء استمتاع الشعراء العابثين الماجنين .

إنها حياة رجل أحب العلم ، وعشق الأدب ، وورث العفة ، وعاف الدنيا ، فترك

١- حديث الأربعاء د/ طه حسين ١٦/٢ - ١٧ طبعة دار المعارف .

الزواج ، وأثر جوار الله فهاجر إلى بيته الحرام، وعكف فيه متعبداً وباحثاً ومعنماً
غزله - إذن - أو لنقل معظمه من النوع التقليدي ، وتجاربه فيه تجارب فنية
لاواقعية، اهتم به فأتى مقدمات لكثير من قصائده ، وهو من الشعراء الذين
وصفهم الدكتور طه حسين بأنهم كلفوا بالفن الشعري أشد مما كلفوا باللذة أو
العفة .

وإذا قرأنا هذا الحوار الذى أداره الشاعر مع إحدى -ببياته حيث يقول :

تقول سليمانى : ما لشعرك طيب وهل طاب شعر ليس فيه نسيب ؟

ربيع نفيت الورد عنه فقل لنا ربيع بدون الورد كيف يطيب ؟

شكايات أزمان ملكن قصائدى فلم يبق فيها للنسيب، نصيب ؟(١)

أقول : إذا قرأنا هذا الحوار أدركنا أن لشعر الغزل مكانة خاصة عند شاعرنا ،

فبه يطيب الشعر وتزهر روضته ، ويتم ربيعه .

وإذا كان شاعرنا صناعياً تقليدياً فى غزله فلا غرابة إذا وجدناه يقلد الاتجاهات

الغزلية المتنوعة .

الاتجاه العذرى فى غزله :

إنك تقرأ بعض غزله فتذكر قيس ليلى ، وجميل بثينة ، وكثير عزة ، وغيرهم

من الشعراء العذريين ، وكأننا أمام محب تيمه الحب ، يريك حرقه القلب وضنى

الجسم ، وحرارة الزفرات وانهمار الدموع ، ونفاد الصبر، إلى غير ذلك من المعانى

التي حفل بها قاموس المحبين العذريين، من ذلك قوله :

رشاً كخوط البانة المياس مايرتضى غير الحشا بكناس

الظبى يرعى فى الرياض ، فعاله لم يرع إلا فى قلوب الناس ؟

فى وجنتيه ضوء مقباس ، وفى صدر المتبم حرقه المقباس

يبقى الذى يرمى إليه بنظرة مثل الذى يغدو صريع الكاس

إن السهام خواطئ وصوائب وسهام طرفك هلهلت قرطاسى
ياليت شعرى هل يحل بعاشق فى أرض عذرة مايحل براسى ؟
العشب ينبت فى مساقط أدمعى لم لم يحرقه لظى أنفاسى(١)
وقوله وقد سئل : هل يصبر على فراق الحبيبة :

سئلت هل تصبر عنها إذا فارقتها ؟ لأصبر قبل الفراق
لأنظرتُ عينى إلى وجهها إن هم جفنى بعدها بانطباق(٢)
وقوله وقد أزمع أحبته السير :

أزمعوا السير بكرة واستقلوا سقط الغيثُ حيث ساروا وحلوا
استقلوا ، فكيف لى بحياة ولقد متُّ قبل أن يستقلوا
استحلوا دمي وفى صلاح ودمُ الصالحين لا يستحلُّ
ظعنوا لانتجاع غيثٍ وخلوا عبراتى ، وهنُّ وبلى وطلُّ(٣)

وما كان لنا أن ننخدع بهذه الآهات ولاتلك الزفرات ولا هاته العبرات، فنسلك
شاعرنا مع شعراء الغزل العذرى ، فماهى إلا صنعةُ الفن ونزعةُ التقليد لشعراء
عرفوا الحبُّ ولوعته ، وعاشوا له حياتهم ، ولم يشغلهم عنه بعضُ ماشغل
شاعرنا فى حياته العلمية الزاخرة .

ورغم أن هذه النزعة التقليدية المتصنعة هى الطابع العام لهذا اللون من غزله
العذرى، فقد نجد له منه مايوحى بصدقه فى تجربة حبه، وفيما يصف من لواعج
الشوق والحنين ، وذلك حين يذكر هموم الحب وأشواقه ودموعه وعجزه عن
الوصول إلى من يحب بسبب مارمته به الأيام حين أصابته فى رجله ، وأضعفت
جسمه فأنكرته الحبيبة بسبب هذه العلل ، فنشعر بأن هذا الحب مرتبط بواقعه

٢- الديوان ٤٦٠ .

١- الديوان ٤١٥ .

٣- الديوان ٤٩٩ .

وظروفه، بعيد عن الزيف والتقليد، كما يقول :

أعينوا على برح أقاسيه بارح لسانح همّ يعترينى وبارح
أعينوا على عين أكفكف دمعها ويغلبنى فيض الشؤون السوافح
أعينوا أخال لم يبق منه الهوى سوى خيال لراى العين ليس بلائح
يحن اشتياقا حين يسمع أو يرى سنا البرق أو سجع الحمام النوائح
يحن إلى سعادى ، ودون مزارها صحاصح بيد دون بيد صحاصح
ومن لأخى الجسم العليل بقطعها وأعيت على أهل الجسم الصحاح
غمرت بفضلى والتعفف وصمة أصابت بها الأيام بعض جوارحى
فلا تنكرى أنى أصبت بمثلها فكم من فلول فى شفار الصفائح (١)

إن صدق الشاعر فى بعض هذا الغزل وهو الحديث عن علته الجسمية يرجح صدقه فى الحديث عن حبه وتمنع الحبيبة عليه ، وليس ثمة ما يمنع أن يكون الزمخشرى قد عرف الحب فى فترة شبابه، ولعل إخلاصه فى الحب ، وعجزه عن الظفر بمن أحب كان وراء انصرافه عن الزواج .

الاتجاه الحسى فى غزله :

إذا تجاوزنا هذا الاتجاه العذرى بما فيه من لوعة وضنى ودموع ، ويممنا شطر الاتجاه الثانى ، اتجاه الغزل الحسى، رأينا الشاعر فى تقليده لأربابه قد ضرب بسهم وافر هائما بالجمال الجسدى ، واصفا أياه ، متغنيا به ، ولكنه الجمال الذى عرفه شعراء هذا اللون قبله ، والصفات التى توارثوها فى شعرهم، إنه التقليد فى كل شئ حتى أسماء الحبيبات ومواطنهن .

ومن غزله الذى نحا به هذا المنحى قوله :

مَنْ مَنْصِفِي مِنْ شَادِن تِيَاهِ
أَلْحَاطِظُهُ فَتَكَتْ بِرُوحِي أَهْ مِنْ
يَا حَبِذَا رِيًّا مُقْبَلِهِ التِّي
أَطِيبَ بِهَا رِيًّا تَضُوعَ سَحْرَةَ
مَافُوهِ إِلَّا كَاسَ رِيحَانِيَّةِ
وَقَوْلُهُ :

نَاتِ بَرْدْفِ كَالْقَضِيبِ ، وَحَرَكْتُ
وَتَبَسَّمْتُ وَمَضَّانَ بَرَقِ لَامِعِ
عَنْ أَشْنَبِ كَالْأَقْحَوَانِ مَرْتَلِ
كَالزَّنَجَبِيلِ مَرْجَتَهُ بِمَدَامَةِ

شَغْفِي بِهِ كَجَمَالِهِ مَتْنَاهِ
أَلْحَاطِظُهُ تَلِكَ الْفَوَاتِكِ أَهْ
أَشْتَمَهَا عِنْدَ التَّقَاءِ شَفَاهِ
مِنْ فِيهِ وَقْتِ تَغْيِيرِ الْأَفْوَاهِ
صَهْبَاءِ فِي رَشْفِ وَفِي اسْتِنكَاهِ (١)

قَدَاً كَخُوطِ الْبَانَةِ الْمِيَالِ
فِي مَتْنِ أُسْحَمَ عَارِضِ هَطَّالِ
يُرْوَى الضَّجِيعَ بِبَارِدِ سَلْسَالِ
غَنِيَتِ عَصُورَا فِي مَهَبِّ شَمَالِ (٢)

وله شغف كبير بالتركيات ، وتعجبه منهن العيون الضيقة الحوراء ، حتى إنه ليؤثرهن على ذوات العيون النجل ممن تغزل بهن الشعراء قبله ، وفيهن يقول :

أَلْأَقْلَ لِسَعْدِي : مَا لَنَا فِيكَ مِنْ وَطَرِ
فَإِنَّا اقْتَصَرْنَا بِالَّذِينَ تَضَايَقَتْ
فَإِنَّ الْعَيُونَ الضَّيِيقَاتِ وَأَهْلَهَا
إِذَا نَظَرُوا لَمْ يَبْدُ إِلَّا أَحْوَارُهَا
وَمَا تَطْبِينَا النَجْلُ مِنْ أَعْيُنِ الْبَقْرِ
عَيُونُهُمْ ، وَاللَّهُ يَجْزِي مَنْ اقْتَصَرَ
بِهِمْ عَلِقَتْ مَنَا الضَّمَائِرُ وَالْفِكْرُ
وَإِنْ ضَحَكُوا ضَمُوا الْجَفُونَ عَلَى الْحُورِ (٣)

وتستثيره منهن هذه المفارقة بين سقم الجفن وقوة فتكه ، وبين فتور اللحظ وشدة أثره ، وبين ضيق العين واتساع طعنتها ، فلا يفتأ يسجلها في شعره بصور متنوعة منها قوله في القصيدة نفسها :

٢- الديوان ٣٥٨ .

١- الديوان ٣٥٦ .

٣- الديوان ٩٠ .

بنفسى قوئى لحظه وهو فاتر كذا اللحظ اقوى مايكون إذا فتر
تضايقت العينان منه وإنه يوسع فى القلب الجراح إذا نظر
ويقتل بالجفن الضعيف ، ولم أزل أعوذ بربى من ضعيف إذا قدر^(١)

ولما كان الغزل هنا- فى غالب الظن- تقليدا وصناعة فنية ، لارتباط له بواقع الشاعر وحياته وجدنا الشاعر يتغزل غزل اللاهين العابثين من الشعراء الذين لم يقنعوا بالنظر إلى جمال المرأة يتمتعون به عيونهم ويتغنون به ، وإنما متعوا حواسهم الأخرى ، فتم اللقاء ، وطاب العناق ، وتلاقت الشفاه ، وارتشف الرضاب إن شاعرنا يأبى إلا أن يسلك فى غزله كل درب سلكه شعراء الغزل قبله ، وهذا درب سلكه كثير من الشعراء من أمثال عمر بن أبى ربيعة وبشار بن برد وصريع الغوانى ، وإن كان شاعرنا قد سلكه بشعره لابقدمه ، فقد كان لقدمه مكان آخر حيث محراب العلم وحلقات الدرس ، وتنقيح الكتب ، وحج البيت ، ومجاورة الله فيه .

ولكنه شاعر ، ولا بد أن يستكمل شعره شتى الفنون ، وأن يستكمل فنه كل الألوان ، وعليه ألا يبدو مقصرا عن شأو سما إليه شاعر قبله .

إنه عالم عرف جد الحياة ، وعفة الذيل ، وزهد ، وتنسك ، ولكنه - مع ذلك - شاعر ، عليه أن يكون كغيره من الشعراء ، فإن قصر به العمل فليسعفه القول ، ومن هنا كانت هذه المفارقة بين الواقع الجاد لشاعرنا وغزله اللاهى ، مفارقة يسجلها فى شعره فيقول :

أنا ذو عفةٍ ونسكٍ ولكن شاطرٌ فى هوى الملاح خليع^(٢)

ولكننا حين نقرأ مقاله الزمخشري فى هذا النوع من غزل اللاهين نجد أنه جانب فاحش الألفاظ وداعر الكلمات ، وآثر الكلمة المتحفظة ، واللفظة المتحرجة ، واستغنى بالتلميح عن التصريح .

٢- الديوان ٥٠٢ .

١- الديوان ٩٠ .

ومن غزله الذى يمثل هذا المنحى :

بلى ربُّ ليلٍ قد طرقتَ خِباءها
وباتت سدولُ الليلِ ترخى عليكما
فأقرح أحشاء الضجيعين منكما
تفرى الدجى عن مثل جبهة أقرح^(١)

ومنه :

ياحبذا ليلةً خلوتُ بها
مازلت سكران لا إفاقة لى
تلتمنى تارةً ، وألثمها
منذ سقانى عقاره فمها^(٢)

ومنه :

مأنس لا أنس أياما تصانعنى
كم ارتشفتُ رضايا كالعقار ، وكم
بكل مضطمر الكشحين مقدود
ألصقتُ خدّى بخد الكاعب الرود^(٣)

ولكنى لا أنكر أن مثل هذا الشعر قد استوقفنى متسائلا : ألا يمكن أن يكون الشاعر قد ألم فى فترة صباه وشبابه بشئ من لهو الشباب ونزواته ، وعندئذ يكون لغزله هذا صلة - على نحو ما - بواقع حياته ؟ إننا لانعرف الكثير عن حياته فى تلك الفترة ، وإن كنا لانشك فى أنه كان فيها طالب علم مجدا ، فهل كان إلى جانب ذلك صاحب حب ، وفتى لهو ، وشاب لذات ؟ وقد سبق أن فصلت القول فى هذه النقطة بعض التفصيل فى الحديث عن حياته ولا أجد ما يستدعى تكراره هنا .^(٤)

غزل النساك :

ولانلبث أن نجد وجها آخر لغزل الزمخشري ، لعله أقرب إلى طبيعته ، وأصدق تعبيرا عن واقع حياته ، نعرفه فيه رجلا عرف الله واتقاه ، فعاف الهوى

٢- الديوان ٤٨٥ .

١- الديوان ٨٥ .

٣- الديوان ٢٢٠ .

٤- انظر : ٦٥ - ٦٧ من هذه الدراسة .

وتأبى على إغراء الجميلات فى شدة لاتعرف الهوينى ، وخشونة لاتباع بلين ،
وعفة ورثها عن آبائه ، وشغف إلى معالى الأمور .

فى هذا النوع من الغزل ، وإن شئت فقل الترفع عن الغزل أو عن هوى
الغزلين يندرج قوله :

أجسادُ غزلانٍ وأعين عَيْنٍ ؟	أتبز عن عطفى رداء الدين
قلبا يضاهى قلبَ ليثٍ عرينٍ ؟	أبروعنى ظبى الكناس وإن لى
وخشونتى ليستُ تُباع بلين	أنا لاتبدلُ بالهوينى شدتى
غيرى ، وما أنا منهما فدعيني	فادعى أمام إلى البطالة والهوى
عرضى بدرع من تقاى رصين	عفتُ الهوى ، وعفت عنه واقيا
بيض العلا وتطرىى وحنينى	وزويت عن بيض الدمى شغفى إلى
عرفوا بشأو فى العفاف بطين ^(١)	وركضتُ فى جلباب آبائى الألى

إنه متعفف عن الهوى ، حريص على ألا يقع فى حباله، فإذا حدث مالايريد
وخفق قلبه للحب فإنما هو قضاء الله ، ولاذنب له فيه:

واعذر فإن القضاء تيمنى لاذنب لى ، ليس ذاك من قلبى^(٢)

ومع هذا يظل فى حبه حدبا على دينه ، متشبثا بعفته ، له من تقواه ومروءته
وفضله مايعصمه من الزلل ، فإذا كان وصال فإنما هو وصال محب تقى لايبيح
لنفسه الخلوة بحبيبتة، بل يؤثره وصالا مع أصحابه وصواحبها ، وصالا يقول
فيه :

ويجمعنى وإياها وصالٌ	على أن الوصالَ مع البقيهُ
فما ثلمت إذن دينى وإن لم	تزل كبدى لمقلتها رميهُ

٢- الديوان ٤٧٤ .

١- الديوان ٣٤٧ .

قبيح بى إلى الفضل انتساب .والمأم بأفعال رديه
للفت مروءتى بالدين لفا فدينى والمروءة لى سجييه(١)

فإذا كان اللقاء بعيدا عن الآخرين كان له من عفته وتقاه أشد رقيبين ، فبهما
يصون نفسه ، ويصون حبييته ، فإذا هو لقاء الأعفاء ، وحب الأطهار لاتدنسه
ريبة ولا يشوبه فحش، كما يقول :

لكن تصان بثوبى عفة وتقى فما نضوت لها بردى ومانضت(٢)

لقد تنسك ، وسلك سبيل الرشاد، وارتدى لباس التقوى ، وعار على مثله أن
يلم بالغى ، وأولى بالجميلات أن يصرفن عنه سهام أعينهن؛ لأنها تفتك بتقواه،
وما أشد ذلك على نفسه إن وقع، إنها الحسرة التى تنهك النفس غاية النهك :

فلهفى على تقوى قصرت ستورها على ، فأهوت مقلتهاها لهتكها
وعار على نفسى اطراح رشادها والمامها بالغى من بعد نسكها
وماينهك النفس العزيزة ناهك كموقف عار ، تلك غاية نهكها(٣)

ولكن سهام الحبيبة تصيبه، بل تكاد تفتك به ، وهنا يهتف بها مستجيرا منها
، مذكرا بصلاحه وتقواه، وبالدين الذى حرم قتل أمثاله من الصالحين :

بالله لاتقتلونى إنى امروؤ ذو صلاح
وقتل مثلى حرام فى الدين غير مباح(٤)

إننا هنا أمام نوع من الغزل يمكن أن نسميه «غزل النساك» وهو - كما سبق
أن قلت - أقرب إلى طبيعة شاعرنا وواقع حياته، لاسيما فى الطور الثانى منها
بعد أن مرض مرضته المنذرة ، وزهد وتنسك ، وشغل نفسه عن الدنيا وصرفها
إلى الآخرة والتزود لها ، وأثر جوار الله فى بيته الحرام متفرغا للعبادة والعلم

٢- الديوان ٢٢٦ .

١- الديوان ٢٧٩ .

٤- الديوان ٥١٢ .

٢- الديوان ٥٢ .

والأدب، متخيراً منهما ما يخدم الدين ويتوسل به إلى الفهم الصحيح له .

التمنع على الحبيبات :

وقريب من هذا مذهبه فى التمنع على الحبيبات اللائى أولعن به وأصبحن لا يطقن فراقه، وإن كان هنا يتدلل عليهن ، متخذاً دور المحبوب لا المحب، لقد دعينه إلى الوصال فتأبى عليهن تخرجاً وإيثاراً لطلب المعالى :

دعتنى إلى الوصل الدمى غير أننى حمانى جواب الداعيات التحرج
ونفسٌ جسيمات المعالى تشوقها إذا غزل شاقته خودٌ وهودجٌ^(١)

لكنهن قد وقعن فى غرامه ، وأصبحن يتمنين وصاله ، حتى إذا هم بالرحيل اعترضن طريقه، يرجونه عدم الرحيل ، ويتوسلن إليه أن يقيم بجوارهن، شاكيات باكيات، يذكرنه بطيب الإقامة ولذيذ المتعة معهن، لكن الشاعر يأبى إلا أن يرحل فى جلد لا تنال منه دموعهن وشجاعة أسد لا ترق لبغام هاته الأطباء .

من ذلك موقفه مع سعاد حين هم بالرحيل، حيث يقول :

قالت سعاد احطط رحالكُ واردد إلى المرعى جمالكُ
طنّب خيامك للإقامة عندنا ودع ارتحالك
كانت منك وصالنا حتى تمنينا وصالك^(٢)

ولسعدى موقف قريب من موقف سعاد، وإن كانت أشد منها لوعة وأسى يقصه الشاعر علينا فيقول :

تصدت لنا تثنى أزمنا سعدى غداة انتويننا عن مغنى اللوى بعدا
وأخضل خديها دموع تتابعت تتابع درُ خازلٍ سلكه العقدا
وجاءت بشكوى لو تمر ببعضها على شجر الخابور ما أورقت وجدا

وقالت أعن نجدٍ وروحائه إلى
ضلالا لرأي مثل رأيك، بئس ما
أعن ظل أيكٍ وارفٍ متفياً
أسارٍ إلى أرض القتاد فهاجر
أمختار ثممد آجن ماأمره

تهامة ، لاحتيت من تاركٍ نجدا
صنعت، أما والله لم تلهم الرشدا
إلى حربيداء يذيب الصفا الصلدا
إليها العرار الطيب النشر والرندا
على جمّة زرقاء أعذب بها وردا^(١)

وهذه تماضر تعترض مسيرته شاكية منتحبة، فيردها بقوله :

حنى رويدا لن يرق لظبية
أرخى قناعك ياتماضر ، وامسحى
لو أشبهت عبرات عينك لجةً
وتعرضت دونى فإنى عابر^(٢)

وبغامها ليث العرين الزائر
عينيك صابرة ، فإنى صابرُ

ولعل شاعرنا يشبه في هذا الاتجاه عمر بن أبى ربيعة فى تدلله على حبيبته وتيهه عليهن، وإن كان شبيها لايعدو أن يكون شبه المقلد للأصيل، مع الاختلاف الكبير بين طبيعة الشاعرين .

وشئ آخر يشبه فيه شاعرنا عمر بن أبى ربيعة أو يحاكيه فيه، ذلك هو أسلوب الحوار الذى يصطنعه فى غزله فيحوله إلى موقف بينه وبين حبيبته، يقص مادار بينهما فى حوار قد يبلغ من الجودة والطرافة ما يجعله جديرا بالإعجاب، حيث يخرج فى ثوب قصصى شائق .

ومن هذه المواقف الحوارية قوله :

ولم أتس إذ غازلتُ قربَ روضةٍ
وقلت له : جئنى بوردي ، وإنما
فقال : انتظرنى رجعَ طرفِ أجبى به
فقال : فلاوردُ سوى الخدِّ حاضرُ

إلى جنب حوض فيه للماء منحدرُ
أردتُ به وردَ الخدود وماشعر
فقلت له : هيهات مالى منتظر
فقلت له : إنى قنعت بما حضر^(٣)

٢- الديوان ٩١ .

٢- الديوان ٣١٣ .

١- الديوان ٧٢ .

وقد يديرالحواربين الحبيبة وصاحبته وقد رآته الحبيبة ينظر إليها، وخشيت
جماعة العذال، فيقول :

طلعت علينا من رواق عال فى ربّرب يعثرن بالأذيال
فرمقتها فتطأطأت لحيائها وتوردُ الخدين كالجرىال
وتلفتت فرقا إلى لدة لها بيضاء مخطفة الحشا مكسال
قالت : فتى يرنو إلينا ، فانظرى ماذا تقول جماعة العذال ؟
فأجابت اللة اطمئنى واأمنى لا يخطرن الهم منك ببال
ماذا عليك وكل طرف طامح نحو الهلال ، وأنت أى هلال
ثم استقلت بعد ذاك فسلمت أهلا بها ، وبذاك الاستقلال(١)

وطبيعى وشاعرنا يسلك دروب الغزل مقلدا فرسانه السابقين، وجاريا فى
جميع حلياتهم تقليدا لا يخلو من الجدة والطرافة، أن يتخذ عناصر هذا الفن من
قاموسهم، فيقلدهم فى الأماكن وعرائس الشعر ، وصفات الحبيب ومواد
التصوير .



الفصل الثامن

ثامنا : الوصف

على الرغم من أن الزمخشري لم يفرد للوصف قصائد أو مقطعات بأكملها، فإن من يقرأ شعره لا يخفى عليه هيامه بالوصف، يلتبس له المناسبات المختلفة أو يستطرد فيه، استطرادا طويلا، حتى إننا نستطيع أن نستخرج من شعره أوصافا لكل ما وقع تحت بصره أو ارتسم بخياله، ومن ذلك :

وصفه ديار الأحبة :

ويأتى فى مقدمة قصائده، فيصف الديار التى رحل عنها قاطنوها، متغنيا بذكرياته الجميلة عن هذه الديار وأهلها، من ذلك وصفه لوادى توضح :

أحبب إلى قلبى بوادى توضح وبنفحة النُّور فى أشجاره
كم قد عهدنا فى أصائله وفى غدواته طيبا وفى أسحاره
واد اذا صفقت مذانبه الأصبأ فغمتك ريحُ المسك من أقطاره
النبت ميالٌ على رملاته والماء سيال على أحجاره
وإذا الحمامُ غدا يكرر سجعه تعتادك الطرباتُ فى تَكَراره^(١)

وهو لا يكتفى بوصف ما فى المكان من شجر ونبت وماء ونسيم ونفحات الطيب وسجع الحمام، وإنما يرسمه لنا أهلا بكرام الرجال وفرسانهم وجميلات النساء.

فهو ممتلىء بالخيام :

وخيامٌ حىٌّ لفقها نظمُ الثريا قريبها
فالخيمُ والأطناب أجفانٌ تشابك هُدبها^(٢)

١- الديوان ٣٣٩ .

٢- الديوان ٣٠٧ .

وأهله فرسان كرام، لهم فيه مرابطُ أفراس ، ومباركُ إبل ، وأندية وأفنية ،
يصف ذلك فيقول :

فإن ببطن الأيكِ للحي مالكٍ مرابطُ أفراس لهم ومواقفا
وأهل إغارات يروعنَ أماناً وأهل إجازات يطامنَ خائفنا
وأفنيةً فيحاً مطارح أرحل لشعث إليها يعسفون التناثفا
وإن لهم فيها مبارك جلةً بشحم ذراها يرفعون المضايفا
متى ما اتاهم طارقون بسدفة قروهم بتكليل الجفان سدائفا
وأندية فيها أهلةً أوجه وضاء تريك النيريات كواسفا
أولى سحنات شفّ عن حسناتها تهللها ، والسيبُ ينهل واكفا
فإذا استوفى وصف ساكنى بطن الأيك عرج إلى وصف ساكناته، فقال فى
نفس القصيدة :

وإن ببطن الأيك من ساكناته رعابيب يصطدن القلوب شواغفا
نشأن شبيهات ببيضِ نعامه نواعمَ بيضاً بالفلاة الأثفا
أسلن خدودا ، واحوررن نواظرا وطلن قدودا، وابيضضن سوالفا
وأشبهن أفواها أفاويه طيبها فطبن أحاديثا ، وطبن مراشفا
ترى كل جيداءٍ تنصّبُ جيدها كما رعتَ ظبيا بالصريمة حاقفا(١)

وهكذا نجد الزمخشري يقدم لنا فى وصفه الديار لوحات فنية فيها جمال الطبيعة ومعالم الحياة ، لوحات يتأنى فى رسمها ، ويكمل خيوطها ، وألوانها وظلالها، فيصف المكان ومافيه ومن فيه وصفا يستحق الإعجاب ، ويعكس ولعاً به ، وقدرة فنية فيه .

وصف السحاب والمطر والبرق :

ويأتى فى قصيدة المدح مقدمة لها أو استطرادا فى أثنائها ، ولكنه فى الحالتين لا يترك هذه الظواهر الطبيعية دون أن يرسمها بكثير من التفصيل ، فيصف السحاب ونوءه ، والمطر وأثره ، والرعد وصوته ، والبرق ولمعانه .

ومن نماذج وصفها قبل المدح عنده :

أيا عارضا تهمنى شآبيب قطره	وأيدى الصبأ تمرى أفاويق درّه
تمخض فى قطر الجنوب نشاصه	فسالت شعاب الرقمتين بغمره
مُسِفٌ إذا ألقى بواد بَعاعه	فما نجعة الرواد إلا بقطره
تباصره رعيانهم فتباشروا	برسُل يغوص الحى فى بعض غزّره
ومرتجز رعدا كإرزام فارق	وقد همهم الحادى عليها بزجره
كأن بروقا لمُعا فى فروعه	يدا صيقل يجلو مناصل بُتره
نماه سماكى من النوء صادق	يكاد يمر القحط قبل ممره
به السنة الحمراء تنفض لونها	وتأخذ من عام الحيا لونَ خضره(١)

ومما أتى استطرادا أثناء المدح مُفصّلا فيه أثر الغيث فى جمال الطبيعة :

صنوك الغيثُ طبقُ الأرض خصبا	فاكتسى الوهدُ وشيه والربيع
ترك العشبُ فاحما كلّ تلّ	شيبَ الثلجُ رأسه والصقيعُ
خفيت مدةً سرائرُ قلب	الأرض حتى أذاعهن مذيع
رجع الطيرُ فى الغناء فهزال	غصنَ ذاك الغناء والترجيع
وغدا العندليب يدعو إلى النز	هة والعندليبُ داع سميع(٢)

١- الديوان ١٦٦ .

٢- الديوان ٥٠٣ .

وصف الطبيعة الجميلة:

وللطبيعة الجميلة سحرها الذى يفتن الزمخشري ويحرك فى شاعريته حاسة الوصف تعبيرا عما أحس به ، فيرسم مشاهدها متتبعا لمظاهر الجمال ومصادر المتعة فيها ، وهذه إحدى لوحاته التى رسمها مصورا واحة جميلة .

وروحاءَ دهماءِ النبات تبالقت	ببيض خضيبات القوائم رُوح
تواصت حوالئها خزامى بطاها	كأنى بفار فى البطاح ذبيح
يعجُّ كضوء المسك فاعمُ نشرها	إذا انسحبت فيها ذلائلُ ريح
يقول لها الرش السماوى - والصبا	أعانت على تلك المقالة - فوحى
مضاجعُ سعدان ، مفارشُ حنوة	مناجمُ قيصوم ، منابتُ شيح
تعاون فيها رُوحُ نجد وماؤه	وأرضُ غداة فى مهامه فيح
إذا ملَّحُ المكاء رجعَ صفيره	يجابها قمريها بمليح
كأن بديحا والغريض تطارحا	على وتر للموصلى فصيح ^(١)

ونظرة إلى أبياته فى هذا الوصف ترىنا تكامل اللوحة التى يقدمها لنا ، فالألوان فيها واضحة ، والأصوات مسموعة ، والخيوط بين عناصرها متصلة قوية ، وإن كانت ألفاظها تنزع إلى الغرابة ، وتنتمى الى المعجم البدوى ، ولاغرو فالمكان الموصوف واحة خضراء تتوسط صحارى نجد .

وصف المعيشة الناعمة :

وهى العيشة التى تغريه صواحيبه بها إن أقام بينهم ، وصدف عن الرحيل الذى هم به ، إنهن - وقد استبد بهن الخوف من فراقه - يذكرنه بما يحبب إليه الإقامة بجوارهن ، والشاعر يرسم على ألسنتهن لوحة فنية لهذه الحياة الناعمة معهن بما تزخر به من وسائل المتعة وأسباب السعادة فيقول :

قالت وقد ملأ الفراقُ فؤادها
هلا أقمتَ ضجيجَ لهو تنثني
في أيكة حجب التفافُ غُصونها
وكانما غاظ الحمائمَ نورُها
غزَلَ الأصيل مع الأحبة والضحي
متألق الخدين يهتف وجهه
عذبٍ مرأشفه كأنَّ رُضا به
بسلافة عتقت فشب شبابها
كادت تُحدِّثُ عن أوائل بابل
وجدوا فهمٌ شغافه بتشقق
نشوانٌ تحت ظلال عيش غيدق
شمس الضحى ، فكأنها لم تشرق
فمتى تضاحك ناح كل مطوق
مع كل مغنوج رخي المنطق
بالشمس ، فى غنى فلا تتألقى
نطفَ الحيا ممزوجةً بمروق
ليست تشب الراح مالم تعتق
لو أنها حبيت بفضل المنطق (١)

إنها صورة جميلة لحياة تنوعت فيها وسائل السعادة ، يعجبنا منها هذا الأسلوب القصصى الشائق، ويلفت نظرنا فيها هذه الاستطرادات التي تهدف إلى اكتمال رسم الصورة بتفاصيلها مع ربط وثيق بين عناصرها .

وصف الصحراء :

أما الصحراء فإنها مضلة يحار فيها القطا ، يهماء يعز فيها الماء، يهزأ السراب بسالكها حين يستبد به الظمأ ، فيهرع إليه يحسبه ماء على البعد حتى إذا جاءه لم يجد شيئاً .

هذه بعض صفات الصحراء التي يقطعها الزمخشري فى رحلته إلى ممدوحه يصورها فى شعره، فيقول :

ومضلة لو أنه استهدى الفتى
يهماء عز الماء فيها ، ثم إن
كدر القطا فيها تعايث بالهدى
تظفرُ بماء لم يكن لك موردا
من لُحمة للعنكبوت ومن سدى
نسجت عليه العنكبوتُ ، فكم به

ترشو أجنَّتْهَا النطىُّ سرابها طمعا بأن ينتاشهن من الصدى
واليلمعُ الخداعُ غاية أمره الـ إطماع لم ينجز لنفس موعدا
أدلجتُ فيها وأدلجت بصحبتى يستوضحون شهاب عزمى موقدا(١)

وإذا كان الزمخشري في وصفه الصحراء هنا يفتخر بعزيمته القوية التي بددت غياهبها ، وأضاءت مسالكها، فإنه يصفها في موطن آخر في أسى وحسرة لأنها - باتساعها ، وخفاء معالمها ، ووهادها ، وجبالها ، وانتشار قطاع الطرق فيها تمثل حائلا بينه في مكة وبين أحبته في خوارزم ، يقول في ذلك :

يحنّ وكم دون الأفقه لأذيال عاصفة من مجر
وبيداء يطرق في طرقها أدلاؤها لخفاء الممر
وكم دون خوارزم من غائط بطين ، ومن جبل مشمخر
أمال إلى النجم يافوخه كمصغ ليفضى إليه بسر
وكم دونها من أشابات قوم جفاة لخير ، كفاة لشر(٢)

ولعل أهم مانلحظه هنا في صفة الصحراء لغته بما فيها من ألفاظ غريبة جزلة ، وتراكيب رصينة .

وصف الناقة :

وشاعرنا كثير الأسفار ، كثير التنقل :

مستديم الأسفار قد أكلته مثل ماتاكل الليالى الأهله
كلُّ يوم ركابه مُثقلات كلُّ يوم خيامه مستقله(٣)

وناقته هي رفيقته في هذه الرحلات ، ألفت الطريق إلى العراق، وتحب المسير إلى الحجاز ، وقد تحن إلى القدس فتيمة وجهها نحوه، إنها عراقية، حجازية،

٢- الديوان ٥٣٠ .

١- الديوان ٢٢٢ .

٣- الديوان ٥٠٨ .

شامية .

عراقية سارت بنا وكأننى بها بعد أيام حجازية السير
وياربما حنّت إلى القدس حنةً فراحت بنا شامية روحة الطير(١)

فهي ليست مجرد راحلة يوجهها حيث أراد ، بل إنها رفيقة مخصصة له ، لها
هوى فى هذه الرحلات ، فقد أحببت الأماكن التى يرحل إليها الشاعر بها، أو ترحل
هى بالشاعر إليها، يحدوها حنين إليها لا يقل عن حنين الشاعر وشوقه :

وجد بنا الحنين إلى حنينٍ وحنّت تحت أرحلنا المهارى
لنا ولهن أكبادُ حرار إلى تلك الأبارق والحرار(٢)

وما أجمل أن يجتمع للشاعر وراحلته حب المكان وهوى من فيه ، عندئذ
ستكون الرحلة حبيبة إلى قلبيهما ، يصف شاعرنا هذا التلاقى فى الهوى
والاتفاق فى المشاعر بينه وبين ناقته، فيقول :

دون الديار برامتين فمَنعجٍ بديار سلمى والرياب معرّجى
ومطيتى لو لم أعجها نحوه كادت تكلمنى ، وقالت لى عُج
رعت الرياضَ بها مدبّجة ولى غفلات عيش كالرياض مدبّج
وتوجدت فيها بأعيس ناعج كتوجّدى فيها بأحور أدعج(٣)

فلا عجب أن يهرع الشاعر إلى هذه الرفيقة المخلصة حين يلم بساحته هم أو
كرب، إنها زورقه الذى يعبر به إلى شط الأمان حين تهيج بلابل نفسه :

وماهى إلا زورقى كلما طمت بلابل نفس ، فهى فراجة الكرب
وكم خرقت بى فى مسيرة أشهر جيوب الفلا حتى وفدتُ على رب(٤)

وهى سريعة قوية ، مأمونة العثار ، ماهرة فى ضروب السير ، ولاعجب فهى

٢- الديوان ٢٧٦ .

١- الديوان ٣١ .

٤- الديوان ١٧٦ .

٣- الديوان ٣٢٤ .

راحلته تخيرها حسبما يهوى ويريد :

كثرت هذه الرواحلُ كالنارِ والأمونُ الرُّوعُ شرطى ، ولاطا
س وماكلهن بالهلوع أخذت فى مضايق الأرض تهوى
ثل عند الأمون غير الرُّوع وإذا ما القلاصُ غُضُّ أدراع
كمداع الأسرار فى الأسماع تترامى بها الفياقى عوجُ
الليل منهن أدلجتُ فى اندراع خُلقتُ للذميل والإيضاع (١)

وصف الخيل :

وحديثه عن الخيل يأتى استطرادا ، فحين يتحدث عن الظفائن التى ارتحلت
عن ربعها يستطرد إلى وصف الخيل التى خاضت بهن الفياقى .

وحين يرسل رسالة إلى ممدوحه يستطرد فيصف الحصان الذى يمتطيه
الرسول . فإذا تحدث عن الفرسان لم ينس الحديث عن خيلهم التى تصاحبهم فى
معاركهم .

فيتحدث عن سلالتها الكريمة قائلا :

فى العاصفات العوج نسبة حُضره وله المناسب فى سلالة أعوج (٢)
كما يقول :

أصيل المنتمى يدلى بعم جديدلى وخال شدقمى (٣)
ويتحدث عن خُلقتِه فى نفس القصيدة فيقول :

وأقبَّ خوار الفصوص تثنِّيا فى أسر محبوبك العظام محملج
نهد لبعد سمائه عن أرضه يعطوفما يعطوه باعُ المسرج (٢)

٢- الديوان ٣٢٦ .

١- الديوان ٥٩٤ .

٤- الديوان ٣٢٦ .

٣- الديوان ٢٦٥ .

ويقول :

وبعارض سبط وشدق أهرتا
نبذا كفاه عن الجلال إذا شتا^(١)

نو ميعة يوفى بجيد أطلع
ضافى المشيب لواكتسى من عُرْفه

ويقول فى وصف لونه :

يسبى النواظر بالروء المبهج
بدوية قالت ضرام العرفج
أوضح منه فذاك غير مضرَج
أعطافه ، ومشى على فيروزج^(٢)

الحسن أحمر وهو أحمر قانى
فإذا رآته من بعيد قائما
لم يخطئ التضريح غير مواردال
خاض اللجين ، وبالعقيق تسربلت

وعن سيره وسرعته وقوته يقول :

تدفق مثل شؤبوب الحبى
ومزَهَقَة لأرواح المطى^(٣)

إذا تحريكة الساق امترته
يبارى الريح ، رَوْحٌ من امتطاء

ويقول :

يألوك شقا للغبار المرهَج
كهوى فهر من علٍ متدحرج
قال النجار له المهذب هملج^(٤)

لامرُهَجٍ أدنى غبار وهو لا
وترى إلى قليل الجبال هويّه
وإذا ازدهى الخبب الجياد وهاجها

ويقول:

وهو الأبى على الونى أن ينكتا^(٥)

نكت العتاقُ الأرضَ حينَ مراحها

وهكذا أحاط الشاعر فى وصفه للحصان بجوانبه المختلفة ، وإن لم يكن قد
فصل الحديث عن أعضاء جسمه .

١- الديوان ٣٣٤ . ٢- الديوان ٣٢٧ .

٣- الديوان ٢٦٥ . ٤- الديوان ٣٢٦ .

٥- الديوان ٣٣٥ .

وصف المعارك الحربية :

وصف الزمخشري معركة انتصر فيها خوارزمشاه على أعدائه من الكفار، وصفا نتعرف فيه على خلجات النفوس وخواطر القلوب، فضلا عن تصوير الجيوش وهجماتها وفرسانها وأسلحتها .

إنه يبدأ الوصف بالحديث عن تسلل الأعداء إلى خوارزم، فيقول :

دلفوا إلى خوارزم يحدوهم إلى
أكنافها طمع لهم سواق
بكتائب مثل الغمام السود في
حافاتهما الإرعاد والإبراق^(١)

ثم يصف جيش خوارزمشاه الذي هب للقائهم، فيقول :

فرماهم الملك الأعز بعسكر
لجب كرعن الطود ليس يطاق
جنباته بمهابة وجلالة
محفوفة، ولوأوه خفاق
والخلق بالدعوات في آثاره
وأمامه بالنصرة الخلاق
فيه الكماة المعلمون تقلقت
بسلاحهم لحق البطون عتاق
من كل ذواق الردى حتى غدا
مايستمر له بسفيه مذاق
يهوى إلى القرن الكمي بطعنة
نجلاء منها تقلص الأشداق
مستمطرون بكل أبيض صارم
في صفحتيه مأوه رقرق
وقنا تمايل كالنشاوى بينها
كأس تدار من المنون دهاق^(٢)

وتندلع نيران المعركة ، ويشتد هولها ، ولا يطيق الأعداء لها صبيرا فيهريون تحت ستار الظلام ، وقد تطايرت أرواحهم خوفا، يصف هذا الموقف فيقول :

وطوائف الكفار لما آنسوا
نار الوغى لشرارها إحراق
ولقد رآها شممت عن ساقها
ملتفة بالساق فيها الساق

٢- الديوان ٣٦٧ .

١- الديوان ٣٦٦ .

جعلوا الدجنة جنة ، وتطايروا هربا فلا خيب ولا إغناق
والخيفةُ الحمراء في أرواحهم عاثت ففى أبدانهم أرماق
والله أتعس جدّهم فإذا رموا بصوارد لم يعدّها الإخفاق
وتقلّبتُ فإلى الرماة نصالهم وإلى الذين رُموا بها الأفواق^(١)

ويتعقب خوازمشاه فلول الجيش المنهزم طاويا المراحل ، جادا فى اللحاق بهم ، حتى إذا أدركهم شن عليهم غارة قضت على بقيتهم الباقية، وفى وصف هذه الغارة يقول :

فطوى المراحل شطر عقر ديارهم ماعاقه عن طيها عواقُ
مائتان من طول الفراسخ سارها فى السبع ليس لجفنه إطباقُ
معه الفوارس كلُّ أروع باسل يعدو به ذو مئعة سباقُ
حتى إذا ما بيّتوا عرصاتها وأتيع عن فور بهن لحاق
شنوا عليها غارة مابينها قطعت فروع الشرك والأعراقُ
كم مشرك لعبت به سمر القنا فشفى الغليل نجيعه المهراق^(٢)

ثم يمضى فى وصف ما حاق بهم وما نزل برجالهم ونسائهم .

ولعله قد تجلّى لنا ما اتسم به وصف هذه المعركة من إحاطة ودقة ترتيب، كما تتجلّى لنا النزعة الدينية فيه ، فالمعركة بين المسلمين والكفار ، وقد انتصر المسلمون بتأييد الله نصرأ أعز الإسلام واغتبط به المسلمون .

وكان لهذه الروح الدينية أثرها فى ألفاظه وتراكيبه التى ظهر فيها التأثر بالقرآن الكريم، فى أكثر من موطن فى هذه القصيدة ومنها :

وعنت وجوه الكافرين وفيهم من قبل كانت عزة وشقاق^(١)

١- الديوان ٣٦٧ . ٢- الديوان ٣٦٨ .

٣- الديوان ٣٦٦ .

وإذا كان الزمخشري يصف هنا معركة حقيقية فإنه قد يصف معارك خيالية يسوقه إليها الاستطراد .

فحين يشكو يصف الفارس الذي أصاب أمأ في ابنها في معركة حامية الوطيس ليبين أن آلامه ليست أقل من آلام هذه الأم . (٢)

وحين يتغزل يصف الفرسان الذين يحامون على حبيبته فيعز عليه الوصول إليها^(٣) ، فهي منهم في منعة وحصن حصين .

وحين يرثى شيخه أبامضر يستطرد واصفا فرسان قومه بنى ضبة وخيلهم وأسلحتهم ومعاركهم ، فلو كان الموت يرده الشجعان لرده هؤلاء عن سيدهم .

وفي هذه الاستطرادات نحس شغف الزمخشري بوصف المعارك والحديث عن الفرسان وشجاعتهم ، حتى إنه ليلتمس لها المناسبة بل يصطنعها اصطناعا ، ولايلبث القارئ أن يتخيل المعركة وقد احتدمت فيحس بسالة الفرسان ، ويسمع صهيل الخيل ، ويقرعه سمعه صليل السيوف وصرير الرماح ، ويغشى بصره متطاير العجاج .

وصف القلم :

والزمخشري صاحب قلم ، للقلم عنده أهمية كبيرة ، فهو رمز العلم والأدب ، وسلاح العالم والأديب ، فإذا كان ممدوحه من ذوى الأقلام زاد قدرا وعلا شأننا في نظره ، ووصف قلمه ، وأثر مايسطر به .

وصف الزمخشري القلم في مواطن كثيرة من شعره وصفا أحاط بما يتصل به ، وصفه عندما كان نباتا في حافات البطائح ، ووصفه وقد أصبح قلما يوضع بجانب المحبرة أو يتقلب في أنمل الكاتب ، وأكثر من الحديث عن أثر مايكتبه فهو سم الأعداء وترياق الأولياء .

٢- الديوان ٥٤ .

١- الديوان ٣٦٦ .

٣- الديوان ٣٥٠ - ٣٥١ .

ومن نماذج وصف القلم قوله فى مدح مؤيد الملك :

نظام شمل الأولياء ، ممزق
بأصم يقرى السم والترىاق فى
متقلب فى أنمل مبسوطه
هذى اليراعة ماأشد عزيما
عن بعض حافات البطائح سافرت
وفى وصف آخر لقوة أثره يقول :

تخر له واردات القنا
فلوقارع اللهزم السن منه
يصر فيخفت منه الصرير
إذا مانثنى صادرا عن دواة
لارتد عنه كليل الشبابة
صرير المهندة المنتضاة(٢)



الفصل التاسع

الزهد

سبق الحديث عن زهد الزمخشري فى الطور الثانى لحياته ، بعد أن أبل من مرضته الناهكة أو المنذرة كما سماها ، وكان ذلك وفاء بما عاهد عليه ربه إن من عليه بالشفاء منها . (١)

ومقاماته التى ألفها فى بداية هذا الطور تعكس نزعة الزهد القوية عنده ، فقد كتبها يعظ بها نفسه وينهاها عن أن تركز إلى ديدنها الأول بفكر وذكر له إلا على سبيل الندم والتحسر (٢) . ومما قاله لنفسه فى مقامة التقوى: «يا أبا القاسم ، العمر قصير وإلى الله المصير ، فما هذا التقصير ، إن زبرج الدنيا قد أضلك ، وشيطان الهوى قد استزلك ، إلا إن الأحبى بك أن تلوذ بالركن الأقوى ، ولا ركن أقوى من ركن التقوى» (٣) .

وفى مقامة الرضوان: «يا أبا القاسم : أجل مكتوب ، وأمل مكذوب أنت بين أمرين: لذة ساعة بعدها قرع السن والسقوط فى اليد ، ومشقة ساعة يتلوها الرضوان وغبطة الأبد» (٤)

وفى مقامة الزاد : «يا أبا القاسم . اترك الدنيا قبل أن تتركك ، وافركها قبل أن تفركك ، طلق القائلة بملء فيها : أنا غدارة غرارة خيالة ، ختاره ، وما الفائل رأيه إلا من رآنى على الأخرى مختارة» . (٥)

وفى مقامة الزهد يقول عن الدنيا: «ماهى إلا سم زعاف بالعسل مموه ، منغصة المسار لم تخل من أذى ، مطروقة المشارب لم تصف من قذى» (٦)

١- انظر ص ٧٣ - ٧٤ من هذه الدراسة .

٢- مقامات الزمخشري ص ٨ ، ٩ .

٣- المصدر السابق ١٥ .

٤- المصدر السابق ص ١٧ .

٥- مقامات الزمخشري ص ٢٢ ، ٢٣ .

٦- المصدر السابق ٢٥ .

وتمضى مقاماته على هذا النهج ، تزهيدا فى الدنيا ، وتذكيرا بالموت ، وحثا على التقوى وإيثار الآخرة على الأولى .

وفى شعر الزمخشرى مايدل على أنه كان يحيا حياة الزاهدين الصالحين ، فقد عاف الهوى وتمسك بالتقوى ، وآثر شظف الحياة طمعا فى نعيم الآخرة يقول فى ذلك :

عفتُ الهوى وعففتُ عنه واقيا عرضى بدرع من تقاى رصين
وزويت عن بيض الدمى شغفى إلى بيض العلا وتطربى وحنينى
وركضت فى جلباب آبائى الألى عرفوا بشأوى فى العفاف بطين
أبغى حياة مُبَطَّنْ فى غِبِّهَا درك السعادة لآحياةً بطين
ماضر من كانت غنائة عيشه سببا إلى شرف يُنال سمين
وسلافةٍ طاشت بلبٍ سقاتها فثنتُ رزين الحلم غير رزين
كتبت بنانُ اللهو فى كاساتها مبتاعها بالروح غيرُ غبين
طلَّقتها تَأْمِيلَ خمرٍ لذة للشاربين وخيفةَ الغسلين(١)

وقنع بالحياة فى منزل صغير متمنيا لو كان له فى الفردوس بيت مثله أو أصغر منه :

ليت لى فى جنة الفردوس بيتا مثل هذا البيت أو أصغر منه
حسب عبد الله أفحوص قطة بعد أن يرزق عفو الله عنه(٢)

وإذا كان الزمخشرى قد نزع إلى الزهد وآثره مسلكا راض عليه نفسه ، فقد أشاد بمظاهره ودعا إليه فى شعره ، حتى إنه ليفرد له قصيدة يسميها «الزهديّة»(٣)

٢- الديوان ٤٤٣ .

١- الديوان ٣٤٨ .

٢- الديوان ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

يبدوها بأبيات يتغزل فيها بحبيبة عرضت له فى صواحبها مياسة الذيل فواحة
المسك، ولكن الحين فى عينها ، وأغلب الظن أنه يرمز بهذه الحبيبة الفاتنة المهلكة
إلى الدنيا التى تخدع الناس بمفاتها ، يقول فى هذه الفاتنة :

عرضت لى فى ملاعبها	مع سربٍ من صواحبها
ترَكُضُ الأذيالَ رافِلةً	والنواشى من جوانبها
وغبار المسك ترهجه	مستطيراً فى مساحبها
لدنة العطفين يقصفها	رقة هزُّ مناكبها
كلما مسن بها عثرت	فى فضول من نوائبها
صداً الذهن تبصُرُ ما	لاح من صقل ترائبها
عينها الحين متى أرسلت	نبلها عن قوس حاجبها(١)

وبعد هذه المقدمة ينتقل إلى الحديث إلى بنى الدنيا كاشفا لهم عن غدر دنياهم
وعن غفلتهم حين يسرفون فى حبها على حين تسرف هى فى رميهم بالمصائب ،
فيقول :

يابنى الدنيا كفى عبراً	ماتريك من عجائبها
غمست فى حبكم ، ولقد	غمستكم فى مصائبها
حسبكم أن جماجمكم	صحتت تحت نوائبها
ولياليتها مطيكم	كلها تخدى براكبها
نحو مورود موارده	حرمت مصدر شاربها
وأدت من ولدت بعدما	جرعته من شوائبها
إن فى أنيابها لكم	كل شر ومخالبها(٢)

ثم يختم القصيدة بأبيات يعلن فيها توبته طالبا من الله المغفرة والرحمة وحسن الخاتمة.

وله غير هذه القصيدة أبيات فى الزهد تأتى فى قصائد الرثاء والتعزية، وقد تأتى فى قصائد المدح والفخر .

ومعانيه فيها تدور حول الزهد فى الدنيا ، والتنفير من غوايتها ، والتنبيه إلى غدرها والتذكير بالموت والحساب ، والنصح بإيثار الآخرة والتزود لها بخير الزاد .

ومن هذه الأبيات ما قاله يزهد فى مباحج الدنيا ويحث على التزود للآخرة :
ضعوا سراويل أعجبتكم بلبستها إن التقى - لو علمتم - خير سراويل
أمامكم أبعد الأسفار فاحتقبوا زادا ، ولا زاد إلا حسن أعمال (١)

ومنها يزهد فى الغنى مؤثرا عليه الفقر إذا عصم الإنسان من المعاصى :
وما الذى يغنى عن المرء عزه ولو ملك الدنيا إذا دخل القبرا
إذا عصم الفقر الفتى من ركوبه معاصى مولاه فما أحسن الفقرا (٢)
ومنها يزهد فى تشييد القصور :

أيا عامرا لقصر المشيد رافعا علاليه قل لى فمن يعمر العمرا
لقد رفع الإيوان كسرى فهل حمى أوان أتاه الموت إيوانه كسرى (٣)

ويزهد فى الأولاد وبناء الدور فى أبيات تعكس نظرة متأملة ، وفكرا عميقا ينفذ إلى حقائق الأمور، متجاوزا ماتعارف عليه الناس من أن السعادة فى إنجاب الأولاد وتشييد البنيان، وذلك حيث يقول :

وأسعد الناس ناس قط ما ولدوا ولا غدوا لخراب الأرض عمارا
فلم يذوقوا بأولاد إذا نقرضوا تكلأ ، ولا راعهم بيت إذا انهارا

٢- الديوان ١٠٦ .

١- الديوان ٢٥٠ .

٢- الديوان ١٠٦ .

من طيب الزاد والوشى النفيس رَضُوا بأن ينالوا بها قوتا وأطمارا
ما استعبدت شهوة الدنيا نفوسهم حتى طوتهم يمينُ الموت أحراراً^(١)
وهكذا تكون سعادة الإنسان الحقيقية فى الزهد والتخفف من قيود الحياة،
فمن لا ولد له لن يذوق ألم الشكل فى يوم من الأيام ، ومن لا قصر له لن يروع
بانهيار بيته يوماً ما ، ومن ترفع عن الدنيا عاش حراً ومات حراً، فنحن هنا أمام
فلسفة الزهد، إنه ليس سبيلاً إلى رضا الله والسعادة فى الآخرة فحسب، بل إن
فيه سعادة الدنيا كذلك .

